بيار بايل

محمّد

مَقتطف من

((القاموس التاريخي والنقدي لبيار بايل))

ترجمة: محمد المزوغي



بيار بايل

محمّد

مُقتطف من
«القاموس التاريخي والنقدي لبيار بايل»

ترجمة:
محمد المزوغي

تصدير

أضَعُ بين يدي القارئ العربي هذا النص الذي كتبه الفيلسوف الفرنسي بيار بايل (Pierre Bayle 1647 - 1706) والذي مرّت عليه أكثر من ثلاثة قرون. وهو مُقتطف من مؤلّفه الضّخم: «قاموس تاريخي ونقدي (Dictionnaire historique et critique)». وعلى القارئ العربي ألاّ يُصدم ببعض العبارات الجارحة المُنتشرة هنا وهناك في ثنايا نص بيار بايل، مثل تسميته محمد بالنبي الكذاب، لأن هذه العبارة ومثيلاتها كانت العملة السائدة عند أغلب الكتاب الغربيين في تلك الفترة. لكن إذا نظرنا للمسألة عن قرب فإن بايل لم يكن ليّناً لا مع اليهودية ولا مع المسيحية، بما في ذلك الملّة البروتستانتية التي اعتنقها في فترة ما من حياته. لقد انتفض اللاهوتيّون ضده بسبب مقال «داود»، وأرغمه المجمع اللاهوتي البروتستانتي على حذف مقاطع من مقاله؛ الكاثوليك غضبوا عليه بسبب انتقاداته القاسية لقدّيسيهم وعلمائهم، من أوغسطينوس إلى بيلاّرمينو، أما بالنسبة للإسلام فإن غريمه، اللاهوتي بيير جوريو (Pierre Jurieu) اتّهمه بأنه يُحابي الإسلام ويُعلي من شأنه على حساب المسيحية.

وفعلاً بايل لم يتوان عن إبداء بعض الأفكار والمواقف المُحابية

للإسلام أو المُنافِحَة نوعاً ما عن نَبيّه. وهذه المواقف لا تُضعف، في الحقيقة، من قوّة تفكيره ولا تُؤثر سلباً على متانة ودقّة تحليلاته، كما هو الشأن بالنسبة لمئات المقالات الأخرى المبثوثة في قاموسه. ولا ننسى أيضاً أن بايل، في جلّ كتاباته، يُحاول أن يَتَحلّى بالموضوعية، وبأكثر قدرٍ من الحياد المنهجي، ولذلك فهو لا يكتفي بالرأي الواحد، بل يَعمل على إيراد طيفٍ من الآراء والأطروحات المختلفة والمتنافرة؛ يَعْرضها ويناقشها بعمق ثم يختار الأنسب منها دون أن يفرض رأيه على القارئ. فهو غالباً ما يُقدّم أفكاره كاجتهاد شخصي، مَحدود ونسبيّ، دون الزّعم بأنها تُمثّل الحقيقة المطلقة أو يُرغِم القارئ على تَبَنّيها.

وأظنّ، من جهة أخرى، أنّه مَهما اجتهد المفكّر لتحقيق مَطلب الموضوعية التامّة، فهو لا يستطيع أن يتفادى تسرُّب بعض المواقف الايديولوجية في خياراته الفكرية، إذ لا واحد يمكنه أن يَلِجَ عالم الفكر وهو صفحة بيضاء. ففي بعض المواضع نُلاحظ أن بايل قد انساق مع أطروحات المؤرخين المسيحيين الذين يشدّدون على الجانب الجنسي من أخلاق نبيّ الإسلام وعلى غزواته وحروبه العدوانية، ولكنه لا يستثني المسيحية من هذه الأعمال، وهنا فهو يحتكم إلى التاريخ، ويُثبِت أن المسيحية حملت السلاح وقتلت وأبادت مثل الإسلام. وقد تكفّل هو نفسه بتَنسيب تهجّمات اللاهوتيين الاوروبيين على محمد، حيث لا تخلو مواقفه من انتقادات ساخرة أو شديدة اللّهجة ضد الجهة المقابلة، كما سيَكتشف القارئ في ثنايا هذا النص.

إن هذا النوع من التعاطف الحذر الذي يبديه بايل في بعض صفحاته كان سارياً نوعاً ما في الأوساط الثقافية الغربية، وقد عَمّ العديد من الكُتّاب والمؤرخين، واشهرهم هو المؤرخ هوتّنغر الذي نَهل منه بايل

كثيراً من الآراء الإيجابية حول تعاليم الإسلام، بل نجده أيضاً عند كتّاب آخرين في عصر التنوير، ولم يَنجُ منه حتى هادِم الأديان، الفيلسوف فولتير. لكن دون أن يَفقد هؤلاء الرّجال عقولهم أمام الإسلام، لأنّهم في العُمق مفكّرون أحرار لا يؤمنون بأي دين، ولا يَركنون إلى أيّ مُعتقد. فقد تَرَبّوا على منابع الفكر الإلحادي في عصر النهضة: على مؤلفات هرطقية من قبيل «ثيوفراسطس المبعوث (*Theophrastus redivivus*)»، والرسالة اللاهوتية السياسية لسبينوزا، و«الكذّابون الثلاثة (*De tribus impostoribus*)» لكاتب مجهول من القرن السابع عشر، عرّوا فيها أنبياء الدّيانات التّوحيديّة وأظهروا كبواتهم ومَخاريقهم. وأظنّ أن من يَستاء من أقوالهم المُحابية، كما فعل الباحث المُسمّى ابن الورّاق في كتابه «لماذا لستُ مسلماً»، فهو لم يُدرك الهدف الخفيّ من هذه العملية، أو ربّما ينقصه الاطلاع الكافي على كتاباتهم كي يتمكّن من التمييز بين التمجيد العابر، والمعارضة الحازمة.

المُعطَى التاريخي المهم الذي لا يجب أن يَغِيب عن ذهن القارئ، هو أن هذا النص كُتب في القرن السابع عشر، يعني في عصر ما زالت فيه الإمبراطورية العثمانية في عُنفوانها، تحتلّ جزءاً كبيراً من أوروبا، وتهاجم الممالك الأخرى في عقر دارها كما حدث مع حصار فيينا عام ١٦٨٣. وبينما كان العثمانيون يحاصرون فيينّا فإن بايل كان يُعدّ الطبعة الثانية من كتابه «أفكار حول المذنبات» الذي ألّفه وهو لاجئ في مدينة روتردام بهولندا، وقد سبّب له متاعب مع اللاهوتيين البروتستانت؛ وفي السنة نفسها تمّت إدانة وحظر، في بلده فرنسا الكاثوليكية، كتابه «نقد عامّ لتاريخ الكالفينية»، وبعد ذلك أقدمت السلطات على حرق الكتاب في ساحة غريف (place de Grève) بباريس.

ورغم أن بايل كان بمقدوره، في تلك الفترة بالذات، أن يقول على

الإسلام كل المساوئ التي يمكن أن يتخيّلها، وأن يُلصق بنبيّ الإسلام كل التّهم الكلاسيكية التي قذفه بها المجادلون المسيحيون من قبله، نظراً إلى أن قوة إسلامية ضارية، كالإمبراطورية العثمانية، لم تنفكّ تُهدّد أوروبا في وجودها منذ القرن الخامس عشر، ورغم الجرائم البشعة التي اقترفها الجنود الأتراك في ربوع أوروبا، فقد امتنع عن ذلك. حاول أن يكون موضوعيا بقدر الامكان، فحَصّن نفسه بكمٍّ هائل من المصادر القديمة والحديثة، بما في ذلك مصادر عربيّة، لكنه ذهب أبعد من ذلك: دافع عن نبيّ الإسلام ضد المجادلين المسيحيين واتّهمهم بالتجديف وبسوء النيّة، نظراً إلى تشبّثهم بخرافات بعض الكُتّاب المسلمين، التي تستنقص من قدر نبيّهم، واستخدموها لصالح قضيّتهم: «إنّ حماسة مُماحِكِينا (disputeurs) ـ يكتب بايل ـ هي بمعنى ما، غير مُنصِفة؛ لأنّهم إذا استخدموا تهوّر مُخرّفٍ مُسلم، يصوّر محمداً في صورة مَكروهة أو سخيفة، فهم ينتهكون مبدأ العدلَ الواجب تطبيقه على كل الناس، الأشرار منهم أو الأخيار. لا يجب أن نَتّهم الناس بما لم يفعلوه أبداً؛ وبالتالي غير مسموح لنا أن نُحاجج ضد محمد من خلال أحلام بعض أتباعه، إذا لم يكن صحيحاً أنه هو نفسه قد نسبها لشخصه (الملاحظة «H» من صدر المقال)».

لقد أردفتُ نصّ الترجمة ببعض التعقيبات الطفيفة التي وضعتُها بين مُعقّفَين، وحافظتُ على عناوين المراجع التي ذكرها بيار بايل بلُغتها الأصليّة، ولم أتدخّل إلاّ نادراً وعند الحاجة لترجمتها إلى العربية.

محمّد[1]

محمّد هو مؤسس دين شهد بسرعة ومازال يشهد انتشاراً واسعاً في العالم (A). وُلد في مكّة ببلاد العرب في القرن السادس. ليس هناك إجماع قطّ على سنة ميلاده (B)، ولا على حالة عائلته (C)؛ ولكن لا أحد يُنكر أن أباه عبد الله، وأمّه آمنة كانا فقيرين. عبد الله مات قبل ولادة محمّد بشهرين (a). آمنة تَبِعته بعد ستّ سنوات، وعبد المطّلب، أبو عبد الله، مات بعدها بسنتين. عمّه أبو طالب تكفّل بتربيته. أبو طالب وزوجته كانا مَسرُورَين بتصرّفات ابن أخيه (b)؛ لكن لم تكن لديهما أموالا كافية لتزويجه، ففكّرا في تشغيله عند امرأة تُتاجر بالبضائع إلى سوريا. هذه المرأة، واسمها خديجة، وقعت في حبّ محمّد، خادمها أو سائق إبلها، فتزوّجته (D). كان عمره آنذاك خمسة وعشرين سنة. أنجبَ من هذه المرأة ثلاثة أولاد توفّوا كلّهم في صغرهم، وأربع بناتٍ كَبرن وتزوّجن (c). بما أنه كان مُصاباً بالصّرع أراد اخفاء هذه العاهة عن زوجته، فأقنعها بأنه لا يسقط في تلك الهذيانات إلاّ لأنه غير قادر على أن يَصمد أمام رؤية الملك جبرائيل، الذي يأتي ليُنبئه، من قبل الله،

(1) P. BAYLE, «Mahomet», in *Dictionnaire historique et critique*, Paris, Desoer, 1820, T. X, pp. 53-102.

بأشياء كثيرة تخصّ الدين (E). خديجة، إما أنها ذهبت ضحيّة هذه الخدعة، أو تظاهرت بذلك، [بعد أن سمعت محمّداً] أخذت تتنقّل من بيت إلى بيت وتُعلن أن زوجها نبيّ، وبهذه الوسيلة اجتهدت لحَشْد أتباع له (*d*)؛ خادِمه وبعض الأشخاص الآخرين الذين هيمن عليهم، اشتغلوا على نفس الشيء وتمّ لهم ذلك بنجاحٍ كبير إلى درجة أن أعيان مكّة خشوا من تفشّي الفتنة. ولذلك، من أجل تفادي الشّغب الذي عادة ما تُثيره ولادة طائفة دينية جديدة، قرّروا أن يتخلّصوا من محمّد. تمّ اشعاره بهذا المخطّط، فلاذ بالفرار. زمن الفرار أصبح حقبة تأريخ المسلمين (F) وقد لجأ للمدينة، مصحوباً بقليل من الرجال، ولكن بعدها التَحَق به العديد من أتباعه. منذ أن حلّ هناك لم يَتردّد في تنفيذ مخطّطه بنشر دينه بحدّ السّيف. وقد سَلّم الرّاية الكبرى لِعمّه حمزة وأرسله في غزوة على رأس ثلاثين رجلا (*e*). هذه المحاولة الأولى باءت بالفشل. الثانية كانت مكَلّلة بالنّجاح حيث هَجَم ٣١٩ من رجاله على قافلة متكوّنة من ألف قرشيّ تقريباً فهَزموهم. الغنيمة كانت ضخمة للغاية. فَقدَ في المعركة أربعة عشر رجلا، وُضِعُوا في صُفوف شهداء المسلمين (G) بعد عدّة معارك حاسمة، تمكّن من أن يصبح سيّداً على مكّة في السنة الثامنة للهجرة (*f*). مات إثرها بثلاث سنوات في المدينة، وعمره يناهز الثلاث والستين عاما حسب بعض المؤرخين (*g*). ليس من الهَيّن معرفة التفاصيل الحقيقيّة لسيرته، ففي الوقت الذي اختَلَق فيه كُتّاب طائفته ألف خرافة لتَمْجيدِه، فإن أعداءه دون شكّ لم يَدّخروا أي جهد لتلفيق الأكاذيب عليه. إنه أمر مشهور جدّا أنّه هو نفسه أقرّ بأنه لا يفعل البتّة معجزات، ومع ذلك فإن أتباعه ينسبون إليه العديد منها (H) يزعمون حتى أن ولادته كانت مَصحوبة بظروف خارقة للعادة، بحيث لا يسعنا إلا الاستغراب منها (I) هناك أناس يتصوّرون أنه كان بإمكانه الاعتقاد في ما

يقوله (K) ويَشْجبون الزّعم بأنه لم يجلب له أتباعا كثرا إلاّ لأن نظام أخلاقه يتناسب مع تخريب القلوب (L) وأنه وعد الناس بجنّة مَلذّات حسّية (M)، السّبب الأساسي لانتشار دينه كان دون شكّ انتهاجِه ارغام النّاس بقوّة السّلاح لكي يذعنوا لدينه (N)، الشيء الذي ما كانوا ليفعلوه بمحض إرادتهم. بهذا نَحفظ للدّيانة المسيحية واحدة من دلائل ألوهيّتها (O): تلك التي تُستَنتَجُ من انتشارها المبكّر في كامل أرجاء المَعمُورة، لكننا نفقد العامل الذي أعطاها مداها (P). لا ينبغي التعجّب قطّ من أن هذا النبيّ الكذاب لم يلتجئ إلى الحيلة التي استعملها جميع رؤساء الأحزاب في مادة الهرطقة والطوائف الدينية (*h*): لم يعتمد أبداً على كيد النساء (*i*) ولم يضع قطّ الجنس اللطيف في حسبانه (Q) اعتقدَ بالأحرى أن قيمة فِتَالِقِه كافية [التحقيق مآربه]. ربّما لم يكن يخشى نساء الفرس (R) إلاّ لأنه أراد أن يضع مدوّنة قانون مملوءة قساوة ضد المرأة. لكنّه كان يحبّ التمتّع بهنّ بشراسة، وتُروى أشياء متفرّدة عن قُوّته في هذا الصّدد (S)؛ شبقيّته كانت دون شكّ السبب في أنه سَمَح بتعدّد الزوجات مع بعض الضوابط، والتسرّي دون قيود (*k*). لم يجرئ على أن يكون هو الوحيد الذي يتمتّع بهذه الرخصة، لكن نكاح المحارم كانت له الشجاعة لتحريمه على أتباعه، بينما سمَح لنفسه بالتمتّع به عن طريق امتياز خاصّ (T). السيّد مُورِيري أورد حكاية نسيَ أن يضمّ إليها ظرفا جوهريا، يخصّ ذاك الرجل الذي رُدِم بالحجارة في بئر جافّ (V) واحدة من أكبر الأكاذيب وقاحة التي لُفّقت على كاهل محمّد هي القول بأنه كان كاردينالاً (X) كان هناك حتى في مجمع البروتستانت بعض الدكاترة الذين اعتبروه المسيح الدجّال (Y) لا يمكنني أن أعتقد بأن جثّته أكلتها الكلاب (Z) كما يزعم العديد، والأب لويس مارّاتشي مُحِقّ في قوله بأن المسيحيين يَعيبون على طائفة محمّد أشياء تشهد بِجَهل مُطبَق

بالأحداث الصحيحة، وأن هذا يُضحك الكفّار، ويجعلهم أكثر تشبّثا بكفرهم (*l*)؛ نُشِرت وصيّة لمحمد (AA)، ولها مواصفات الاختلاق: إنها معاهدة توصي بالتسامح المتبادل، أبرمت، هكذا يقال، بينه وبين المسيحيين. يمكن تقديم أدلّة الاختلاق من الوثيقة ذاتها (BB). مَهما كان الأمر، من الأكيد أنه كان تُجاههم أكثر إنسانية منه على اليهود: وهذا أمر غريب جداً، لأنه بِرُوحِ الغازي التي تفتّقت فيه، كان من المناسب جدّا أن يحوز أتباعا من أمة اليهود، بصفته المسيح الذي ينتظرونه (CC). المسلمون لديهم إجلال كبير لشخصه (DD)، وعلى هذا يُقدّمون شهادات مُتميّزة، فهم يؤدّون فريضة حجّ شديدة الورع لمدينة مسقط رأسه ولتلك التي يوجد فيها قبره. ليس صحيحاً أن هذا القبر مُعلّق في الهواء (EE)، كما يصرّح أولئك الكتاب الذين يَنسخون بعضهم بعضا؛ وليس من الأكيد بالمرّة أن أيّ مهندس معماري كان قادرا على هكذا عملٍ (FF)؛ تَسرِي العديد من التنبؤات تُهدّد منذ وقت طويل بِزَوال الديانة المحمّدية (GG)، ويُروى أن محمّدا سُئل عن مدّة دوام دينه، فأشار بإصبعيه ممتدّان، ويُزعم أن هذا يعني أنها ستدوم ألف سنة، وهكذا فهي ستنتهي عام ١٦٣٩ (*m*). لن أفحص أبداً عن مدى صحة هذا الحساب، ولن أستمتع بدحض أشياء من هذا القبيل. يجب أن أقول، لصالح الكتّاب المسيحيين، أن أتباع هذا الكذاب هم الذين حاكوا عليه الخرافات الأكثر اشمئزازا. إنهم هم الذين يُعلِمونا أن الأرزّ والورد يخرجان من عرقه (HH)؛ وأن الملك جبرائيل علّمه كيفيّة إعداد أكلة تمنحه قوى خارقة للعادة للتمتّع بالنساء (II). وبعد، فإن ديانة هذا اللاهوتي الكذاب خضعت لنفس المساوئ التي ساوقت ولادة الديانة المسيحية والإصلاح اللوثري؛ لأنه بمجرّد أن ادّعى النبوة حتى ظهر العديد من الأنبياء الكذابين (KK)، ودبّ الانقسام بين أتباعه في الحين.

أنا لا أتعجّب من جرأته إزاء بُشرى الفارقليط، بقدر ما أتعجّب من بعض الكتّاب العرب الذين يتباهون بقراءة نسخ من الإنجيل تحتوي أشياء تخص محمد يزعمون أن المسيحيين قد فسخوها (LL). لا أدري هل يجب أن نعتقد في ما يقوله البعض من أن محمداً قد صرّح أنّ رُبع القرآن فقط صحيح (MM). مَن يرغب في الاطلاع على تسلسل زمني لأعمال ومُغامرات هذا النبي الكذاب، مُدَعَّمة باقتباسات جيّدة وتفاصيل عميقة للأحداث، فما عليه إلاّ أن يقرأ كتاب السيّد بريدو (*n*). كان قد تُرجِم من الانجليزية إلى الفرنسية (*o*) منذ صدور الطبعة الأولى لهذا القاموس. نرى من بين أمور أخرى أدلّة قويّة على أن محمداً كان كاذبا وأنه استخدم دَجله لصالح أطماعه (*p*) واحدة من بين هذه الأدلة هي أن تقلّبات نبوّاته تستجيب لمُتغيّرات مصالحه الخاصة (NN). ما يُروى عن مغامراته النسائية مُذهل للغاية: كان غيوراً إلى أبعد الحدود، لكن هذا لم يمنعه من التحلّي بالصّبر إزاء خيانة زوجته الأحبّ إليه (OO). لم يستطع أبداً اتخاذ القرار بتَطليقها، فتدخّلت آلات وحيه الكبرى لكي يكفّ الناس عن اغتيابه وفَضْحه بسبب علاقته بزوجة سيّئة السّمعة. أتباعه أخيراً اعتقدوا أنها كانت صادقة وتقبّلوا كإلهامٍ نَبَويّ تأويلاتها لشريعتهم (PP). البعض من الكتاب المسيحيين يَقصّونَ رواية مضحكة بخصوص سذاجة المسلمين في إيمانهم بالمعجزات (QQ)؛ لقد عِيب على السيد سيمون بعض الأشياء التي كتبها، من شأنها أن تُخفّف من خزي الدين المحمّدي (*q*). انظروا إلى الفصل الأخير من *تاريخ معتقدات وعادات أمم الشرق*. لكن لو كان على حقّ في ما يخصّ الخلفيّة، فهو يستأهل الثناء؛ لأنه لا ينبغي العمل على إذكاء كراهية الشرّ واصفين إياه بصورة أحْلَك وأظلم ممّا هو عليه بالفعل.

(A) ديانته حازت بسرعة وتحوز الآن مساحة شاسعة.] لا يجب أن نَحمِل على مَحمل الجدّ أولئك الذين يُبالغون في القول بأن هذه الديانة تَحتلّ نصف العالم أو أكثر[1]: يجب الاكتفاء بالقول إنه لو قَسّمنا مناطق الأرض المَأهولة إلى ثلاثين جزءٍ مُتساوية، تلك التي تَحتلّها المسيحية هي كالخُمس، وتلك المحمّدية كالسُّدس، والوثنيّة تسعة أعشار[2]. وهكذا فإنّ الديانة المحمّدية هي أكثر انتشارا من المسيحية، لأنها تَفُوقها في مُجمل الثلاثين جزء من العالم المعروف، وهي مساحة شاسعة.

(B) ليس هناك إجماع حول سَنَة ميلاده.] حسب البعض وُلد عام ٥٦٠م[3]، أو عام ٥٧٧م[4]؛ حسب البعض الآخر ولد عام ٥٨٠م[5]، أو ٥٩٣م[6] أو ٦٠٠م[7] أو ٦٢٠م[8]. لكن الرأي الأرجح هو أنه وُلد

---

(1) Postellus, *Grammatica Arabicae*. Ludovicus Regius, *De Vicissitudine Rerum*, Libr. VIII, *in fine*, cité par E. Brérewood, *Recherches curieuses sur la diversité des langues et religions*, chap. XIV, p. 203.

(2) Brérewood, *là même*.

(3) Freherus, in *Chronologia ad jus Graeco-Romanum*, Leunclavii.

(4) Pfeiffer, *ubi infra.*, citation (28), p. 267.

(5) Erpenius, *Orationes tres de linguarum Ebraeae atque Arabicae dignitate*, Laidae 1621, p. 42, *apud* HOTTINGER, *Historia Orientalis*, p. 145.

(6) Scindlerus, in *Lexicon Hieroglyphicum Sacro-Prophanum*, apud J. HOORNBEECK, *Summa Controversiarum Relgionis*, p. 76.

(7) *Vide* Genebrardus, *Chronographia*.

(8) Joh. Andreas, in *Confusione Sectae Muhammedicae*, apud Hottinger, *Historia Orientalia*, p. 145.

في سنة ٥٧١م، أو ٥٧٢. وهو رأي جِرجس المَكين[1]: لاحظوا أنه حتى إذا اعتمدنا على كاتبٍ واحد، لا يمكن تفادي الاختلافات. المَكين، إذا قبلنا رواية هوتنغر[2]، يُنزل تاريخ ميلاده في عام ٥٧١، لكن إذا صدّقنا رايسكيوس، فإن ميلاده كان في عام ٥٧٢م، «*بما أن تاريخ ولادة محمّد هو محلّ اختلاف كبير بين مؤرخي المسلمين والمسيحيّين، رايسكيوس ينصح باتّباع من جميعهم جرجيس المَكين، نظراً إلى كونه من أقدم كتاب تاريخ العرب وعاش في القرن السابع [الهجري]. ومنه يُستَشَفّ أن سنة ميلاده تقع عام ٥٧٢م في يوم ٢٢ من شهر نيسان يعني شهر أبريل*»[3]. هكذا يتحدّث مُدَوِّنو لايبتسيغ (Leipzig) في مُقتَطَف من «حوليّات العرب والأتراك» (*Chronicon*

(١) [جرجس المكين، تاريخ المسلمين من صاحب شريعة الإسلام أبي القاسم محمّد إلى الدولة الأتاباكية، وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية وقدّم له توما إربيني، ونشر في ليون بفرنسا سنة ١٦٢٥ (المترجم)].

Historia Saracenica qua Res Gestae Muslimorum a Muhamade primo Imperii et Religionis Muslimicae auctore, usque ad initium Imperii Atabacaei, à Georgio Elmacini, Latine reddita opera ac studio Thomae Erpenii, Lugduni Batavorum 1625.

[المَرجع الذي اعتمده المكين، كما صرّح في بداية كتابه، هو ابن جرير الطبري: «قال إنه صلى الله عليه ولد ببطحاء مكة في الليلة المسفرة عن صباح يوم الاثنين لثمان خلون من ربيع الأول يوافقه من شهور الروم الثاني والعشرون من نيسان سنة اثنين وثمانين وثمان مائة للإسكندر ذي القرنين»، ص، ٢. وترجمته باللاتينية (المترجم)]:

«Natus autem est Muhammad, gloriosa memoriae, in Valle lapidosa urbis Meccae, circa auroram diei Lunae, qui octavus erat mensis Rabŷprioris: cui rispondet è mensībus Romanorum 22 dies mensis Nisani, anni octingentesimi octogesimi secundi Alexandri Magni». Ibid.

(2) Hottinger, *Historia Orientalis*, p. 145.

(3) Acta Eridutorum Lipzae 1689, p. 377.

الذي طُبع للمرّة الأولى سنة ١٥٥٠ ثم طُبع (*Saracenum et Turcicum*) ثانية في لايبتسيغ سنة ١٦٨٩. أليست فضيحة كبرى، أن يتعذّر توثيق تاريخ ميلاد نبيّ كاذب، شاع ذكره في حياته وأصبح نموذجا (وَثناً) لكثير من الشعوب بعد موته؟

(C)... **ولا على حالة عائلته.]** هناك عدد لا متناه من المؤرخين الذين كتبوا أن هذا النبي الكاذب (*ce faux prophète*) وُلِدَ من عائلة متواضعة (*basse naissance*) وأن أباه كان وثنيّا، وأمّه يهودية. «إن أولئك الذين رووا حياة محمد العربي كانوا كُثرا، حتى وإن لم يَسردوا كلهم نفس الوقائع بطريقة موحّدة، لكنهم يُجمعون على أن أصله شعبي ومِن جنس بسيط، ويقولون إنه نشأ في عائلة فقيرة، أبوه كان وثنيّاً وزوجته يهودية (*patres ethnicos, judea mulier ejus*)»[١]. السيّد مُوريري (Moréri) تَبنّى هذه الرواية التي لا تتوافق كثيراً مع أقوال المؤرخين العرب: هم لا يَدّعون أن أبا محمد كان غنيّا لكنهم يقولون إنه كان من أشراف القوم وأن قبيلة قريش التي ينتمي إليها، تعلو في المكانة والشرف على كل القبائل العربية الأخرى[٢]. ابن خلكان، مؤرخ عربي، يقول صراحة إن آمنة كانت من تلك القبيلة، وهذا مُرجّح جداً، لأن العرب حافظوا إلى الآن على عاداتهم في التزوج من نساء قبيلتهم[٣].

(D) **خديجة وقعت في حبّه... فتزوّجها.]** البعض يرى أنه استخدم

(1) Ludovicus Godofredus, in *Cosmographia*, apud Hottinger, *Historia Orientalis*, p. 136.

(2) Hottinger, Ibid, p. 137.

(3) Hottinger, Ibid, p. 136.

السّحر لكي يَكسب حُبّ هذه المرأة، لكن آخرين يقولون إنه لم يكن بحاجةٍ إلاّ إلى شبابه وإلى قوّته الطبيعية التي كانت مُذهلة للغاية كما سَنرى لاحقاً[١]. السيد شيفرو (Chevreau) يأتي بشيء لم يَقُله أغلب الكتّاب، أعني أن هذه المرأة كانت مُتزوّجة حينما اشتغل محمد لحسابها «تمّ بَيْعُه أو إيفاؤه في أيدي عبد مناف، أيْسَرُ تاجرٍ بين الاسماعيليين. علاوة على تأديته لهذا التّاجر أعمالاً جليلة، فقد نال اعجاب زوجته خديجة: والسّاعي (le facteur) كانت لديه شمائل يُعدِمُها السّيد. إذا رجعنا إلى بعض الكتّاب، كانت له قامة مُكتملة ومتوسطة، الرأس كبير، الوجه أسمر، اللون فاقع، النّظر متواضع، الهيئة نبيلة، الجسد حرّ ومستقيم، المقاربة متحضّرة، الحديث مُلتوٍ، الروح رقيقة وليّن العريكة، كان مُفوّها، مَتين البنية، ويَحتقر المخاطر التي يخشاها الآخرون»[٢].

وهذا مَقطع يَشهدُ عمّا قُلته بخصوص استعماله للسّحر: «بما أنه كان أيضاً يملك مواهب روحيّة وجسمية، في البداية أوقعَ خديجة سيّدته في حُبّه، (عمل لها سحراً يكتب زوناراس «Zonaras»[١*][٣]؛ وقد اتّهمه قومه بالسّحر، كما يشهد بذلك ريكاردوس في «دحض القرآن»، وعدد غير قليل من سُوَر القرآن)، تمكّن من تزوّجها[٢*][٤]، واكتسب منها

---

(1) *Conférez ce qui été dit d'*Apulée, *dans la remarque* (I) *de son article, tom. II*, p. 213.

(2) Chevreau, *Histoire du monde, Libr.* V, *Chap.* I, p. 10 du *III Tome*, Edition de Hollande 1687.

(3) (1*) Tom. 3, p. 127 b.

(4) (2*) Zonaras, *l., c.* Cedren., p. 347, *ad A.* 21. *Heracl.*

ثروة واسعة جداً[(٣*)(١)]*، ثم بدأ في تصميم مشاريع كبرى، بهدف ابتلاع ممالك شاسعة»*[(٢)].

(E) أقنَع امرأته بأنه لا يسقط في تلك الهذيانات، إلاّ بسبب... الملك جبرائيل، الذي يأتي ليُخبره، من قِبل الله، بأشياء كثيرة تخصّ الدين.] كان عمره أربعين سنة حينما بدأ يَنتَصِب كنبيّ، وأراد أن تكون زوجته أوّل داعية له «بمساعدة راهب بيزنطي، بدأ بإقناع امرأته[(٤*)(٣)]، بأنه يُوحى إليه، مُدّعيا أن الملك جبريل يُرسَل إليه من طرف الله لكي يتحدث معه ويُنبّهه ويُعلّمه (*monere ac instruere*) أشياء عديدة تخص الدين؛ لكنه لا يستطيع أن يتحمّل رؤية هيئته؛ يرتعد من الخوف وينتابه الدوار، فيَنهار ويَقع على الأرض (*et humi procumbere*)؛ بهذه التعلّة الحاذقة برّز بكياسة مرض الصرع الذي كان يعاني منه[(٥*)(٤)]. لكن خديجة بدأت تجوب الحيّ، وتُعلن للجميع أن زوجها نبيّ، وهكذا أوْقعتْ في نفس الخطأ العديد من جيرانها النساء، عملٌ مماثل في الغشّ[(٦*)(٥)] قام به زيد عبده، وآخرون[(٦)] رشاهم محمد بالذّهب (*quos auro corruperat Muhammed*)»[(٧)].

---

(1) (3*) Eutrop. *Contin., rerum.*, R l.18, p. 255.

(2) Samuel Schultetus, in *Ecclesia Muhammedana*, p. 13-14. C'est une thèse soutenue à Strasbourg, l'an 1667 sous Dannhawerus.

«أطروحة قُدّمت في ستارزبورغ، سنة ١٦٦٧ تحت اشراف دانّهاووروس»

(3) (4*) Zonaras, *tom.* 3 in *Heraclio*, p., m. 127, b. Cedren., p. 347.

(4) (5*) Cedren., *anno* 21 *Heracl.*, p. 347. *Id.* Anastasius bibliothecarius et alii *ap.* Baron., *ad A.* 630, n. 2.

(5) (6*) Cedren., *c.* 1. Eutrop., *contin.*, *rerum Rom. l.*. 18, *p.* 255.

(6) Elmac. *Hist. Sar.*, *l.* I. c. I, *apud* Hotting., *l.* I, p. 257.

(7) Samuel Schultetus, in *Ecclesia Muhammedana*, p. 14.

إذا أراد البدء بإغواء امرأته، فذلك لم يكن بهدف استخدام حيلة كلّ المُجدّدين، الذين يتباهون بأن لهم نِسوة وَرِعَات مُخلِصات، ثم يستعملون مُكر وحماس بعض النسوة لكي يَنجَحوا في مَسعاهم. محمّد، كما سنراه لاحقاً[١]، لم يعبأ بهذه الحِيلة. كانت لديه نِسْوة كُثُر وجَوَارٍ عديدة؛ لكنه اتّخذهنّ لأغراض طبيعية: لِتَلبِيَة رَغباته، بكلمة واحدة للشّهوة الجنسيّة وليس لنشر دينه. لم يَكسِب أبداً ودّ زوجاته، وهنّ اللواتي، يُقال، قَضَيْن على حياته[٢]. لم يكن مُخلصاً لهنّ وكان يَضربهنّ، وقد ابتدع قانوناً حتى، يَسمح بمقتضاه للرجال بضرب النساء، إذا دَعتْ الضّرورة. لقد سنّ هذا القانون حينما ضَرب واحدة منهنّ، ورأى أن الأخريات تَهْمِسن، وخوفا من أن تكون هذه التّعلة غيرُ كافيَة لتَهدأتِهنّ، أضاف سفسطة، يعني تمييزاً سخيفاً: لم أضربها، قال، لأنها زوجتي بل لأنها عجوز شمطاء. «التّرخيص بضرْب النساء، أعطى عليه مثالا من تصرفاته الشخصية، حينما تعامل بقسوة مع إحدى زيجاته، واغتاظت الأخريات، تَحصّن بسلطة الشريعة، وبالتمييز التالي: جَلَدَها لا من حيث هي زوجته (*quatenus uxor ejus*)، ولكن من حيث هي عجوز مَقيتة (*excecranda esset vetula*)»[٣].

---

(١) في الملاحظة (Q).

(٢) «محمّد... مات مقتولا من طرف زوجاته في عام ٢٢ من حكم هرقل، ٦٣٢ من ميلاد المسيح».

«Muhamedes ... dolo suarum uxorum perit anno Heraclii 22, Christi 632». Joannes Cluverus, *Historiar., totius mundi* epitome: in *Heraclio*, p. 346. *Il cite* Paulus Diac., lib. 18

(3) **Hoornbeek, *Summa Controv.*, p. 162.**

(F) **زمن ذلك الفرار هو فترة التأريخ للعصر الإسلامي.]** يسمّونها «هجرة». هذه الكلمة تعني «هروب»، («فرار» *fuite*)، لكن لكي يَحمِل تأريخهم اسماً مُشرّفاً، أضفوا على هذه الكلمة معنى خاصا، أي عملاً دينياً حيث يَهجر فيه أحدهم وطنه، ويذعن لعنف مضطهدي الدين(1). القرشيّون كانوا يرون في محمد صاحب فتنة ومارق، هرب لكي يتفادى العقوبة التي يستحقّها. لكن، على العكس من ذلك، هو وصحابته ادّعوا في هروبهم، أنهم سائحون قدّيسون وهاربون لأجل الدين وفي سبيل الإله الحق. وقد مرّت مدة طويلة ومحمد بينهم يمارس الدعوة، وكان قد قضّى العديد من الأيام في غارٍ يعدّ فيه نبواته. «إنّ قضاة مكة، خوفا من اندلاع الفتنة، اعتقدوا أنه من المناسب وضع حد لحركة التمرّد والشغب التي أثارها محمد تحت ذريعة الدين، فاتُّهِم وأُدِين، وحُكِم عليه بالإعدام، ولكنه حُذّر من الخطر، ففرّ هاربا من بلاده. وقد حدث ذلك في السنة الرابعة والخمسين من عمره، بعد أن قضّى ١٥ سنة: جزء منها في حِيَاكة نُبوّته الكاذبة في غار حراء بالقرب من مكة (مثل الملك نُومَا (Numa) مع الآلهة إيجيريا (Egeria))، وجزء آخر في نشرها بين العامة(*1)»(2). هذا الهروب حصل في ١٦ يليو ٦٢٢م.

(G) **سقط له [في معركة بدر] أربعة عشر قتيلا صُنّفوا في صُفوف شهداء المسلمين.]** إنهم شهداء ظرفاء: أناس قُتلوا من أجل نَهب قافلة غنيّة، يَمْتَهِنون مِهنة اللصوص والصعاليك. جِرْجِس المَكين يروي أن محمداً لم يَقم بتلك الغزوة إلا لكي يَنهب القافلة: «سَمع أن أبا سفيان

---

(1) Hottinger, *Historia Orientalia*, p. 261.

(2) Schultet., *in Eccles. Muhammed.*, p. 14.

بن حرب مُقبل من الشام في عير عظيم فيه أموال قريش **فخرج لأخذها** (egressus est igitur eas direptum)، فلجأ أبو سفيان بالغرب إلى مكة وكانت عدّة المسلمين ثلاثمائة وتسع عشر وكانت عدة المشركين ما بين التسع مائة والألف فانتصر المسلمون وقتلوا من المشركين سبعين رجلا وأسروا مثلهم، واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلا»[1]. الكُتّاب العرب أثنوا كثيراً على هذه المعركة؛ القرآن نفسه يذكرها عديد المرات[2] كما لو أنها كانت إنجازاً عظيماً نَصَر فيه الله والملائكة، بصورة خارقة، القضيّة العادلة.

(H) يقول هو نفسه إنه لا يفعل المعجزات البتّة، ومع ذلك فإن أتباعه ينسبون إليه الكثير منها.] غروسيوس (Grotius) استخدم هذه المسألة لكي يُهاجم الديانة المحمّدية («le mahométisme»)، بعد أن لاحظ أن محمداً لا ينكر أبداً معجزات يسوع المسيح «الذي أرجع البصر للمكفوفين، والصحة للمرضى، قوّم الأعرج، أحيى الموتى، ومحمّد موافق على كل هذا. وقد صرّح[(*1)(3)] بأنه لم يُبعث بالمعجزات وإنما بالسّلاح (non cum miraculis, sed cum armis). البعض من أتباعه زعموا أن له معجزات، لكن إذا تمعّنا فيها، فهي إما أنها أشياء بإمكان الحيلة أن تولّدها، مثلما يُحكى عن حمامة تحطّ على أذنه، أو أشياء لم يوردوا لها أي شاهد، على سبيل المثال، الناقة التي تكلّمه بالليل؛ أو

(١) جرجس المكين، تاريخ المسلمين من صاحب شريعة الإسلام، م. س، ص، ٥.
(2) Voyez Hottinger, *Ibidem*, p. 269, 270.
(٣) (*1) Azoara [يعني السورة]. III, XIV, XVII, XXX, LXXI.

أشياء في غاية السخافة[(*٢)(١)] والتي لا ينبغي عرضها إلاّ لإظهار فظاعتها، مثلما يورد هؤلاء الكتاب أنفسهم، أنّ قطعة كبيرة من القمر سقطت في كُمّه، ثم أرجَعها إلى السماء لكي يُعيد لهذا الكوكب دائريّته التي فقدها»[(٢)].

أنا أستغرب كيف أن السّيد سيمون نَسِيَ المعجزة الرّائعة التي حدّثنا عنها غروسيوس: تلك القطعة من القمر التي سقطت في كُمّ محمد ثم أرجعها إلى السماء، لكي لا يَفقد ذاك الجرم شيئاً من دائريّته. إليك كلام السّيد سيمون: «المسلمون (المحمّديون) ينسبون بعض المعجزات إلى نبيّهم، فهم يؤكدون أنه أسال الماء من أصابعه، وأنه شق القمر بإصبعه. يقولون أيضاً إن الحجر والشّجر والدّواب شهدت بأنه رسول الله: «أنت الرسول الحق من الله»؛ يؤكدون علاوة على ذلك أن محمداً سافر في ليلة ما من مكة إلى بيت المقدس، ومنها عرج إلى السماء، وأنه شاهد هناك الجنة والنار، وأنه تحدث مع الله وأنه نزل من السماء في نفس الليلة، وأنه تواجدَ بمكة قبل بزوغ الشمس»[(٣)].

لكن لا نترك هذه النقطة دون أن نُورد ملاحظة لِعَالم ألماني. قال: إن بعض المسيحيين مَدفُوعون بتعصّب زائف ضد محمد يتّهمونه بأنه

---

(1) **(2*) Azoara LXIV. *Vide latius hanc fabulam ex capite* Ceramur, *apud* Cantacusenum, *oratione in Muhametem, n.* 23.**

[انظر هذه الخرافة بأكثر توسّع من خلال فصل... الخ]

(2) **Grotius, *De Veritate Religionis Christianae*, Libr. VI, p. 202. Il cite Azoara V, XIII.**

(3) **Simon, *Histoire critique de la créance des nations du Levant*, Frederic Arnaud, Francfort, 1684, p. 167.**

يتباهى بإتيان المعجزات التي لم ينسبها إليه الكتّاب العرب «هناك كتّاب عرب ينسبون معجزات إلى محمّد يرفضها آخرون. الأوّلون مثلا يقولون إن محمداً اقترب منه القمر وشقّه إلى نِصفين. السّيد بفايفر (Pfeiffer) يلاحظ، بعد البيضاوي، أن محمداً لم يقل أبداً شيئاً من هذا القبيل، لكن فقط أنه قبل يوم القيامة سنرى هذه المعجزة في السماء[1]. يقول إن في معركة خيبر قدّمت له امرأة يهودية شاة مسمومة، لكن تلك الشّاة المشوية، أنذرته بأن لا يأكل منها. إلاّ أنّ أبي الفداء يروي ببساطة هذه الواقعة كما لو أن محمداً بأكله قطعة منها وبتفطّنه أنها مُسمّمة، قال ذلك بعد أن لَفَظَها إلى الأرض: إنّ هذه الشاة تقول لي، يعني إنّني أشعر أنها مسمومة. فعلا، فهو يعترف غالباً في القرآن أنه لا يستطيع أن يأتي بالمعجزات. لهذا يجب أن نعتبره خرافة الحديث عن الحمامة التي تأتي لكي تأكل من أذنه والضأن الذي لا يأكل شيئاً إلاّ من يديه. السيد بفايفر يعترف بأن العرب لم يكتبوا شيئاً من هذا القبيل، وأن الأمر محبوك من طرف بعض المسيحيين المُختلّين صانعي الخرافات والمتعصبين ضد هذا الكذاب (contre cet imposteur)»[2].

ألا يحق لنا أن نُبيّن للسّيد بفايفر أن المسيحيين استعملوا تجاه المسلمين (المحمديين)، نفس الأسلوب الذي استعمله أصحاب الدين

---

(١) [انظر تفسير البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٩٨، ج. ٥، ص، ١٦٤. «رُوي أن الكفار سألوا رسول الله آية فانشق القمر. وقيل معناه سينشق يوم القيامة»].

(2) Augustus Pfeifferus, dans le VII Volume de la *Bibliothèque Universelle*, p. 257. Le livre dont l'Extrait se trouve dans ce volume est intitulé: *Theologiae ... Judaicae atque Muhammedicae principia sublesta et fructus pestilentes.*

(ceux de la Religion)، [يعني البروتستانت] ضد الكاثوليك؟ هناك في بعض الروايات الخرافية ذِكر للعديد من المعجزات التي يرفضها الكتّاب المُتبصّرون من مجموعة الكنيسة الرومانية، فهم لا يتكلمون عنها بتاتا، بل يَسخرون منها. ألا يحق لنا أن نستنتج من ذلك أن البروتستانت مُجدّفون، أو أنهم كتّاب مَحمُولون بفرط التعصّب حينما يَعيبون على الكاثوليك لا معقوليّة تلك المعجزات؟ لماذا لا نقول إن المسيحيين الذين سَخَروا من المسلمين لأشياء لا نجدها اليوم عند الكتّاب العرب، قد قرؤوا لبعض المؤلّفين التافهين الذين أجهدوا أنفسهم لإعلاء مجد هذا النبي الكاذب، كما يفعل صانعو الخرافات [الكاثوليك] لتمجيد القدّيسين؟ إذا لم نعثر عند الكتّاب المُتبصّرين على كل ما يقوله لنا السيد شيفرو، فربّما نعثر عليه لدى كتّاب ذوي نوايا سيّئة، من صنف أولئك الذين ينشرون الكتيّبات الصُفر[1] التي يُسَوّقها الباعة المتجوّلون في الشوارع. فلنترك الكلمة للسيد شيفرو: «حينما تَرجّاه[2] القرشيون في مكة بأن يأتيهم بمعجزة لكي يُعَرِّف بنفسه، شقّ القمر إلى نصفين وشاهدوا بينهما جبلاً، حينما نادى شجرتين أتيتا إليه ثم افترقتا بأمر منه. في أي مكان يمرّ به، ليس هناك من شجر أو حجر إلا ويقول له: السلام عليك يا رسول الله. أنزل من بين أصابعه نافورة مياه روت جيشا غفيرا من العساكر والدواب. أشبع بشاة وأربعة صيعان من الحنطة ثمانين رجلاً؛ أشبع عدداً أكبر بقليل من الخبز؛ مرة أخرى أشبع كل قوّاته بحفنة تمرٍ جاءته بها فتاة. جذع نخلة كان يُصلّي أمامه أخذه حنين مفرط

(١) [بايل يقول: الكتيبات الزّرق].

(٢) يعني محمد.

له، حينما غاب عنه سمعه ينوح بصوت أقوى من صوت الناقة، وكف عن النّواح حينما اقترب منه... إذا أردنا تعداد كل مُعجزاته، سنعدّ ألفا منها، حسب البعض، بل ثلاثة آلاف حسب البعض الآخر».

لا أريد أن أنكر أنّ حماسة مُماحِكِينا (disputeurs)، هي بمعنى ما، غير مُنصِفة؛ لأنّهم إذا استخدموا تهوّر مُخرِّفٍ مُسلم، لكي يجعل مَكروها أو سخيفا محمداً نفسه، فهم ينتهكون مبدأ العدل الواجب تطبيقه على كل الناس، الأشرار منهم أو الأخيار. لا يجب أن نَتّهم الناس بما لم يفعلوه أبدا؛ وبالتالي ليس مسموحاً أن نُحاجج ضد محمد من خلال استيهامات بعض أتباعه، إذا لم يكن صحيحاً أنه هو نفسه قد نسبها لشخصه. إنه متّهم ومدان بما فيه الكفاية إذا ما اكتفينا بتحميله أخطائه الذاتية، دون أن نحمّله مسؤولية حماقات متحمّسة غير مرغوب فيها وقصصيّة (et Romanesque) أسالتها أقلام أتباعه.

(I)... يزعمون أن ولادته تساوقت مع حوادث معجزة للغاية، لا يمكن أن نبقى أمامها إلاّ بهتين.] إذا اعتقدنا في روايات بعض الكُتّاب العرب، هذه هي المعجزات التي سبقت أو لحقت ولادة محمد والتي أذهلت الجميع: آمنة حملت النبي الجديد الذي في رحمها، دون مُعاناة. وَلَدَته دون أوجاع، وقد نزلَ ساجدا لله، وحينما رفع رأسه قال لا إله إلا الله. وُلد مختوناً، وهذا هو معتقد اليهود في آدم، موسى، ويوسف وداود؛ الشياطين كلها طُرِدت من السماء؛ مربّيته حليمة التي لم يكن لها حليب في ثديها، درّ حليبها حينما أعطته إلى الطفل. أربعة أصوات سُمعت في أقطاب العالم الأربعة واشتهرت الخوارق: انطفأت نار فارس التي كانت دائماً مُتّقدة؛ نخلة جافة اخضرّ سعفها وأثمرت. قابلات ذات جمال خلاب تواجدن هناك دون استدعائهن؛ نور أشع من

الشرق إلى الغرب؛ كانت هناك حتى طيور حاملة في مناقيرها زنابق، يشع نورها من الشرق إلى الغرب(١).

لا شيء أكثر مدعاة للسخرية من تلك التي تُروى حول ما قام به الملائكة الحارسة لمحمد: أخذوه إلى قمة جبل، شقوا بطنه، غسلوا جيداً أحشاءه، وحَوّلوها أكثر نصاعة من الثلج، فتحوا صدره، أخرجوا قلبه ونزعوا منه علقة سوداء هي البذرة الشيطانية التي تنغّص حياة كل الناس. وقد فعلوا له كل هذا دون أن يشعر بشيء، وهكذا غُسل ونُظف في داخل جسده، وعاد معافى إلى المنزل. لاحظوا أن هذه الأشياء حدثت ولم يكن لديه من العُمر إلا أربع سنوات(٢).

(K) هناك أناس يتصورون أنه من الممكن أنه اعتقد فيما قاله.] هذا تقديرهم للأمر: كل المسيحيين مُجمِعون على أن الشيطان هو الصانع الحقيقي للإسلام، وأنه لم يستخدم محمداً إلاّ كوسيلة لكي يؤسس في العالم دينا كاذبا. يجب القول إذن أن محمداً تمّ تسليمه للشيطان من قبل العناية الإلهية، وأن السلطة التي مَنَحها الله للشيطان على هذا الحقير (sur ce misérable) أوسَع من تلك التي مُورِسَت على النبيّ أيّوب، لأن الله لم يَسمح أبداً للشيطان بتخريب نفس أيّوب مثلما سمح له باستعمال نفس محمد لخداع البشرية. بهكذا إمبراطورية شاسعة جداً، والتي حسب اعتراف كل المسيحيين كانت سببا لدفع هذا الشخص كي يفرض دينه، ألم يستطع أن يُقنعه بأن الله جعله نبيّاً؟ أكان بإمكانه أن يوحي إليه ذاك

(1) Chevreaux, *Histoire du monde*, p. 7. Voyez aussi, Hottinger, *Historia orientalia*, p. 149, seq et Hoornbeek, *Summa Controversiarum*, p. 77-78.

(2) Hoornbeek, *Ibid*, p. 78. Il cite Andrea, *Confusio sectae Mahometanae*, cap. I et *Alcoranum Germanicum*, cap. IV.

المصير الكبير بإرساء دين جديد؛ أن يولّد فيه الرغبة في تحميل نفسه آلاف المتاعب لكي يخدع العالم كلّه، وما كان بإمكانه أن يَفتنه؟ ما العلة التي نَملكها لكي نُسلّم بالأولى ونَستبعد الثانية؟ هل هي أكثر صعوبة دفع إلى مصائر كبيرة رغم الأنوار المعاكسة للعقل، بدل خداع العقل بيَقينٍ خاطئ، أو بتطويع الإرادة نحو تنوير مُزيّف بحيث إنها ترضخ له كوحي حقيقي؟

أنا أعترف بأن الواحدة من الخيارات تبدو لي أصعب من الأخرى. لكن، لو كان بمقدور الشيطان أن يفتن محمداً، أليس من المحتمل جداً أنه قد فَتَنَه بالفعل؟ هذا الرجل كان أجدر حقاً بأن يُنَفِّذ مخططات الشيطان لو كان متيقّناً من ذلك، عوض أن لا يكونه. لا يمكن أن ترفضوا لي هذه، لأن كل شيء بالأحرى يتساوى في هذا السياق؛ من الواضح أن شخصاً يعتقد بأنه يقوم بعمل صالح سيكون دائم الناشط وأكثر مُثابَرة من رجل يعتقد أنه يعمل شرّاً. يجب القول إذن أن الشيطان يتصرّف بحذق شديد في تنفيذ مخطّطاته، لم ينس الحجّة اللازمة لِتَشغيل آلَتِه أو زيادة قدرة حركتها: يعني أنه فتن هذا النبيّ الكاذب. إذا استطاعه فقد أراده وإذا أراده فقد فعله.

لكننا بَرهنّا أسفله، يقول هؤلاء السّادة، أن القرآن هو عمل رجل متعصّب مختلّ، كل شيء فيه فوضوي، ومضطرب: شَواش من الأفكار الغير منسجمة(1). إن مُخادعا كان بمقدوره أن يُنظّم تعاليمه بصورة

(1) ... *Rudis indigestaque moles ; Nec quidam, nisi pondus ineres ; congestaque codem. Non bene junctarum discordia semina rerum.* Ovid., *Metam.*, lib. I, *vs* 7.

وترجمته: «[لقد أطلقنا اسم الشّواش] على هذه الكتلة الخشنة عديمة الشكل، كومة هامدة بلا حياة، خليطٌ مُشوّش من عناصر متنافرة، سيّئة الجمع».

أفضل؛ كُوميديّاً بأكثر اتقان. ولا نَقُولَنّ إن الشيطان لم يُقنعه أبداً بمصارعة الوثنية والوقوف ضدّها، ولا بأنّه لم يحرّضه على محبّة الإله الحق والفضيلة: هذا يبرهن كثيرا. من هنا يمكن القول إن محمداً لم يكن آلته.

هذا علاوة على أنه يمكننا القول إنه: ١) كان يَكفيه أن يعارض المسيحية بديانة كاذبة عوض أن يطمح إلى تحطيم الوثنية؛ ٢) محال أن يثبت الاعتقاد بأنه مبعوث من الله إذا لم يأت بتعاليم أخلاقية حسنة. لا يفيد في شيء القول بأنّ هذا النبيّ الكاذب يتباهى باتّصاله بالملك جبرائيل؛ لأنه نظراً إلى أنّ الكتاب المقدّس يُنبؤنا بأن الشّيطان قد يتشكّل على هيئة ملك النور، ألا يحقّ لنا أن نزعم بأنه ظهر لمحمّد تحت اسم وفي صورة الملك جبرائيل؟ لكن محمداً يعمد إلى اقناع أتباعه بأن هذا الملك يأتي ويكلمه في أذنه على هيئة حمامة، وهي بالفعل حمامة كان قد رَوّضها لكي تحطّ وتنقر من أذنه. سنرى لاحقاً[1] أنها حكاية مصطنعة لم يورد لها العرب أي ذكر. العالم الشهير جيسبار فوسيوس (Gisbert Voétius) لا يشكّ في أن محمداً كان متحمّسا بل مجنونا حتى. وهذه كلماته (سَنَرَى أن أشخاصاً آخرين لهم نفس الحكم): «لا أدري كيف يمكن أن نُنكر هذا (أن محمداً كان مصابا بالصرع، بهذيان الهوس أو ممسوساً من الشيطان) إذا كانت حياته وأفعاله تشهد بذلك. هذا ما يؤكّده يُوهانّس أندرياس ماوروس (Johannes Andreas Maurus) في كتابه «نقض طائفة محمد»، الفصل ١: أن أهل مكّة اتّهموه بأنه هاذٍ ومجنون (*fatuo et obsesso*)، وزوجته نفسها

(١) في الملاحظة (V).

على أنه مخبول وبه مَسّ من الشيطان. نفس المؤلّف، وفي نفس الكتاب، كما فيليب غوادانيولو (Philippus Guadagnolo) في كتابه «نقض أحمد زين العابدين» الفصل ١٠ الفقرة ١ يبرهن من خلال كتب المسلمين أن حياة التبتّل والافراط في الصيام سبّبت له الجنون، وأن أثناء إقامته في الغار كان يسمع أصواتاً وأقوالاً، دون أن يرى من يكلّمه (*loquentem autem neminem vidisse*). وهذه الحال يمكن أن نُقارنها بحال أولئك الرجال المُهْتَاجين والمهووسين شيطانيا والمُتنبِّئين الرّهبان في الأديرة، الذين كانوا معروفين في أيام آبائنا»(١).

مَهما كانت الشبهات التي تحيق بهذه الحجج، أفَضْل الاعتقاد، كما هو مشهور عند الجميع، أن محمداً كان كاذبا (*a été un imposteur*)، لأنه علاوة على ما سأقوله في مَوضِع آخر(٢)، فإنّ أساليبه المُراوِغَة ولبَاقتَه في كسب الأصحاب، تشهد بأنه ما كان يستعمل الدين إلاّ كمطيّة لقضاء حاجته. وقد كتب جرجس المَكين: «وكان صلى الله عليه حسن الأخلاق ليّن الكلام يعود أصحابه كما يعودونه ويُقبّل وُجُوههم كما يُقبّلونه، ويُواسي الضعيف ويُعظّم الكبير ويرفق بالصغير ومَنْ سأله في حاجة لا يردّه إلاّ بحاجته أو بميسور من القول»(٣).

هل أن شخصاً مَهووسا بجدّ كان بإمكانه أن يكون له طبع مماثل؟ هل كان قادرا على أن يَفهم جيّداً عالمه المحيط به؟ ألا ترون أنّ شخصاً اعتقد لمدّة من الزمن أن الله يبعث له بملاكه لكي يُوحِي إليه بالدين

(1) Voët., *Disputat.*, tom. I, p. 1057, 1058.

(٢) في الملاحظتين (T) و(NN).

(٣) جرجس المكين، تاريخ المسلمين، م. س، ص، ١٠.

الحقّ سيكون في حالة حرجة للغاية حينما يشعر بأنه لا يقدر على تَدعيم رسالته بأية معجزة؟ لكن هذه هي الحال التي كان عليها محمد. القرشيون كانوا مُستعدّين لاعتناق دينه الجديد على شرط أن يأتيهم بمُعجزات، إلاّ أنه لم تكن لذيه الجرأة أبداً كي يَعدهم بها: لقد تَهرّب بمَهارة من مطلبهم، مرّة بالقول إن المعجزات لم تَعُد ضرورية، ومرّة أخرى يُحيلهم على عظمة القرآن»[1] [2].

أليس هناك ما من شأنه أن يُقنع نفسه بأنه لم يكن مُرسلا من الله لكي يؤسّس دينا جديدا؟ انظروا الملاحظة (N) آخرها.

(L)... ولا يُوافقون على الرأي القائل بأنه لم يجتذب أتباعاً كُثراً إلاّ لأن أخلاقه تتكيّف مع فساد القلوب.] حول هذه النقطة، أنا لا أشك في

(1) *Voyez* Hottinger, *là-même*, p. 302.

(٢) [وفي هذه النقطة فإن بايل يحيل على هوتنغر الذي هو بدوره يستشهد بتفسير البيضاوي للآية ٣١ من سورة الرّعد (ولو أن قرآنا سُيّرت به الجبال أو قُطّعت به الأرض أو كُلّم به الموتى) وتفسيرها عند البيضاوي الذي استشهد به هوتنغير هو كالآتي]: «وقيل إن قريشاً قالوا يا محمد إن سَرّكَ أن نتّبعك فسيّر بقرآنك الجبال عن مكة حتى تتسع لنا فنتخذ فيها بساتين وقطائع، أو سخّر لنا به الريح لنركبها ونتّجر إلى الشام، أو ابعث لنا به قصيّ بن كلاب وغيره من آبائنا ليكلمونا فيك، فنزلت. وعلى هذا فتقطيع الأرض قطعها بالسير. وقيل الجواب مقدم وهو قوله: ﴿وهم يكفرون بالرحمن﴾ وما بينهما اعتراض وتذكير ﴿كلام﴾ خاصة لاشتمال الموتى على المذكر الحقيقي. ﴿بل لله الأمر جميعاً﴾ بل لله القدرة على كل شيء وهو إضراب عما تضمنته ﴿لو﴾ من معنى النّفي أي: بل الله قادر على الإتيان بما اقترحوه من الآيات إلا أن إرادته لم تتعلق بذلك، لعلمه بأنه لا تلين له شكيمتهم ويؤيد ذلك قوله: ﴿أفلم ييأس الذين آمنوا﴾ عن إيمانهم مع ما رأوا من أحوالهم ناصر الدين البيضاوي، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، دار احياء التراث العربي، بيروت ١٩٩٨. الآية ٣١ من سورة الرعد، ص، ١٨٨ (المترجم)].

أن الأشخاص الذين تحدثتُ عنهم في الملاحظة السابقة حججهم مؤسّسة على نحو أفضل، فيما يتعلق بحسن نيّة محمد المزعومة. أنا لا أرى أبداً أن هذا النبيّ الكذاب قد حاد عن أخلاق الإنجيل[١]، بل أرى، على العكس من ذلك، وبالتحديد في ما يخص العبادات أنه يُفاقم من نَيْر المسيحيّين. لقد أمرَ بالختان وهو بالنسبة للبالغين أمر عسير؛ يريد من الناس أن يُقلِعوا عن أكل بعض اللحوم وهذه عبودية لا تُوائم أبداً مُحبّي الشهوات؛ مَنَع شرب الخمر، وهكذا مَنْعٌ ليس هو في الحقيقية بهذا القدر من القساوة بالنسبة للشعوب الآسيوية مثلما هو كذلك بالنسبة لشعوب الشمال، ولو تمّ تنفيذه لأدّى حتما إلى إفلاس ويليبرودس (Willibrods) وبونيفاس (Bonifaces). ومع ذلك فهو غير مُريح في كل البلدان التي تُنتِج الخمر، والتاريخ القديم والحديث يشهدان بأن هذا المشروب لم يكن مكروها عند الشرقيين أنفسهم. علاوة على ذلك فإن محمداً يفرض صياماً طويلاً واغتسالاً (وضوء) غير مُناسبيْن للغاية، ويُكلّف الناس بالالتزام المتواصل بالصلاة وهو أمر ثقيل مؤلم، وفي كلمة واحدة ما عليكم إلاّ أن تعتبروا بالأربعين حديثاً الأخلاقية[٢] لكي تجدوا فيها كل ما يَتَعارض أشد التّعارض مع تخريب القلوب[٣]: الصّبر في الشدّة، تَحريم النّميمة، الحضّ على الصّدقة،

(1) Voyer Hottinger, *là-même*, p. 247 et seq.

(٢) تجدونها عند هوتنغر، نفسه، ص، ٢٤٨ وما بعدها.

(٣) ذكرها هوتّنغر، في كتابه السابق، ص، ٢٤٨ وما بعدها.

تَرك الرّياء، عدم الاعتداء على أي شخص وأخيرا خلاصة كلّ شرائع الأنبياء[١]: اعمل لأخيك ما تريده لنفسك[٢].

إنه إذن خداع للنفس الزّعم بأن شريعة محمّد لم تنتشر بهذه السرعة إلاّ لأنها تَنزَع عن الإنسان أغلال الأعمال الفاضلة والعبادات الشاقة وأنها تسمَح له بالتصرفات السيّئة. إن لم أخطئ، الأشياء الوحيدة التي حلّت فيها هذه الشريعة العُقدة التي ربطها الإنجيل بإحكام هما الزواج والانتقام. فهي تبيح تعدد الزوجات ومكافأة الشرّ بالشرّ، لكن اليهود والوثنيّين لا يربحون قطّ، فهم يملكون معاملات لا تُقلِقانها هذين النّقطتين. هوتّنغر[٣] يعطينا قائمة طويلة من هذه التعاليم الأخلاقية، يمكننا القول، دون أن نُثنِي على هذا الدين، إنّ أجْوَدَ القوانين التي يمكن أن نعطيها للإنسان لمُمارسة الفضيلة واتّقاء الرذيلة، مُتَضَمّنَة في هذه التعاليم. هوتّنغر لا يَجد أيّ حرج في الاشادة بهذه الأخلاق واعلائها فوق أخلاق العديد من الرّهبان[٤].

السيّد سيمون لم يتكلّم بأقل استحسان عن الديانة المحمّدية بخصوص موضوع الأخلاق: «فهي تتمثّل، يقول، في عمل الخير وتفادي الشرّ، وهذا ما يجعلهم يَفحصون بعناية في الفضائل والرذائل، وفُقهاؤهم ليسوا أقل حرصاً على التفاصيل من لاهوتيّينا التبريريّين». بعد

---

(١) إنجيل القديس متّى، ٧، ١٢.

(٢) ذكره هوتنغر، التاريخ الشرقي، ص، ٢٥٠..

(٣) هوتّنغر، نفسه، ص، ٣١٥ وما بعدها.

(٤) «فليجرؤ الخصوم أنفسهم على أن يحكموا من خلال المراجع العربية التي سنعرضها. إن المسلمين في كثير من الأحيان يبدو أنهم يمارسون الفضيلة وينبذون الرذيلة، أكثر من أغلب الرهبان البابويين». هوتنغر، تاريخ الشرق، ص، ٣١٤.

أن استعرض بعض مبادئهم الخاصة حول ضرورة الإيمان والثقة بالله والإنسانية والتوبة الخ، أضاف «أسْكُتُ عن أخلاقهم الأخرى بقدر أن ما أوْرَدتُه كافٍ لإظهار طبيعتها؛ ويمكنني أن أؤكّد أنها ليست خليعة كما هو الشأن عند بعض أصحاب الحيل الفقهية في عصرنا. أضيفُ فقط أن لديهم كمّاً هائلاً من التّعاليم الحسنة تخص واجبات الأشخاص تجاه أقاربهم وتُعنَى بطرق المعاملات المتحضّرة. وقد كتبوا أيضاً بشأن الطريقة التي يجب التصرّف فيها إزاء الحاكم (الأمير)، واحدة من قواعدهم الأخلاقية أنه من غير المسموح به أبداً قَتْله، ولا حتى التحدّث عنه بسوء تحت تعلّة أنه طاغية»[1].

(M).... ولأنه يَعِد الناس بجنّة حسيّة.] يجب القول إن هذا الوعد يمكنه أن يكون بمثابة إغراء بالنسبة للوثنيّين، لا أدري هل هو قادر على إغراء اليهود ولكنني أشك في كونه يملك قوة تأثير على المسيحيّين. ومع ذلك كَم من المسيحيّين أسقطهم هذا النبيّ الكذاب في الردّة. أريد أن يُحمَل على محمل الجدّ (حرفيّا) ما يقول عن مُتعَة جَنّتِه: أعني أنّ كلّ واحد تكون له قوّة جماع مائة رجل للتلذّذ الكامل بالنّساء [الحوريّات]، فضلاً عن الأكل والشرب[2]. هذا لا يُريك أبداً الفكرة التي تُقدّمها لنا الكتب المقدّسة عن سعادة الحياة الآخرة، لأنها تتحدّث عنها كما لو أنها حالة تتجاوز فيها الملذات كلّ ما رأته الأعين وكلّ ما سمعت به الآذان وكلّ ما خطر بقلب إنسان[3]. حينما نصدّق الكتب المقدّسة نتصوّر سعادة الجنّة كشيء يفوق الخيال، غير قابل للتّحديد.

---

(١) سيمون، التاريخ النقدي للشرق، ص، ١٧٣ و١٧٥، ١٧٦.
(٢) شيفرو، تاريخ العالم، ج، ٣، ص، ١٤.
(٣) كورنث الأولى، ٢، ٩.

حاولوا أن تَتشبّثوا بفكرة ما، لن تَستَنفِذوها أبداً، تمنّياتكم تأخذكم إلى أعلى، تنطلق وراء كل الحدود. محمد لا يترك لكم هذه الحرّية؛ فهو يُغلِقكم (يَسجنكم) في حدود معيّنة: يُضاعف مائة مَرّة اللذة التي تَشعرون بها، ثم يَتركُكم هناك. ما مائة مرّة بالمقارنة مع عدد لا يمكن أن نجد له نهاية؟ لكن، تقولون إن الكتاب المقدس لا يحدثكم إلاّ عن اللذة عموماً دون تخصيص، وإذا استخدَم صورة جسمانية، وإذا وعد أن «مِن دَسَم بَيتك يَشبَعون ومِن نَهر نَعيمكِ تَسقِيهم»[1]، فأنتم مُحَذّرون إثرها مباشرة أنها استعارات تخفي وراءها لذّة روحية. لكن هذا لا يحرّك أصحاب الأنفس الدّنيوية [الشهوانية] (les âmes mondaines) مثلما لو وعدناهم بملذات حسّية. أجيبُ أن الأنفس الأكثر غرقاً في المادّة سيفضّلون دائماً جنّة الإنجيل على جنّة محمّد، على شرط أن يُضِيفوا إيمانا تاريخيا بتصوير الرّؤية المباركة، حتى لو أضافوا نفس الايمان بالقرآن.

أوضّح الفكرة بهذا الافتراض: فلنتصوّر داعيتيْن، أحدهما مسيحي والآخر مسلم، يدعوان أمام جمعٍ من الوثنيّين. كل واحد منهما يحاول أن يَجلبهم إلى دِينِه بِعَرْض ملذاتِ الجنّة. المُسلم يَعِدُ بوَلائِم ونساء جميلات، ولكي يؤثّر أكثر في مستمعيه يقول لهم بأن في العالم الآخر الملذات الحسّية ستكون أقوى مائة مَرّة من تلك التي هي في هذا

(١) سفر المزامير ٣٦، ٩.

«Voyez Gassendi, *Ethicae lib. I, cap. II*, p. 679, qui s'attachait à la force de l'hébreu, rapporte ainsi ce passage: Inebriabuntur ab ubertate domus tuae, et de torrente voluptatis tuae potabis eos».

العالم. المسيحي يصرّح أن متعة الجنة لا تتمثل في الأكل والشّرب، ولا في الجماع، ولكنها ستكون ذات قوّة وحيوية بحيث إن خيال أيّ شخص لا يقدر على ادراكها، وأن كلّ ما يُمكن أن نَتصوّره بمضاعفة ملذات الحياة الدنيا، مائة، ألف، مائة ألف مرّة، لا يساوي شيئاً بالمقارنة مع السعادة التي يمنحها الله للروح بالتّجلّي لها وجها لوجه. أليس صحيحاً أن المستمعين الأكثر خلاعة والأكثر نَهماً سيُفضّلون اتّباع الداعية المسيحي بدل المسلم، طالما افترضنا أنهم يضعون نفس الإيمان سواء في وعود المسلم أو في وعود المسيحي؟

إنهم، دون شكّ، في وضعية مشابهة لوضعيّة جندي أمام ما يَعْرضه عليه نَقِيبَيْن كلاهما يحاول تَجْنيد أتباع. مَهما كان اعتقاده في صدقيّة كل واحد منهما، يعني في أنهما سيُوفّران له كلّ ما يَعِدانه به، فهذا لا يَمنَع من أنه سَينضَمّ إلى من يدفع أكثر. وبالمثل فإن أولئك الوثنيّين سيُفضّلون جنّة الإنجيل على جنّة محمّد مَهما اقتنعوا بأن كل واحد من هذين الداعيتين سيوفّر لأتباعه المكافأة التي وعدهم بها[1]. إذ لا يجب علينا أن نتصوّر أنّ إنسانا شهوانيّا يَعشق الملذات الحسّية فقط لأنها تنبَع من هذا المصدر [الحسي]: فهو سيَعشقها على كل حال حتى وإن أتت من مصدر آخر. اجعلوه يجد أكثر مُتعة في استنشاق هواء نقيّ من مغارة، عوض أن يأكل وجْبة لحم لذيذة، سيَتَخَلّى بِصَدرٍ رحبٍ عن أفضل

---

(١) «هذا يجب فَهمه بِوَضع جانباً فكرة النعمة التي ترى أننا نختار الدين الحق (الكنيسة الحقة) بهبة من الله وبفضلٍ من الروح القدس. نحن نتحدّث هنا حسب افتراض لا نعتبر فيه إلاّ دافعَي المصلحة وحب الذات، اللذين يتحكّمان في اختيار الناس لدين معيّن».

الأكلات لكي يذهب إلى هذا الغار. اجعلوه يجد أكثر متعة في الفحص عن مسألة هندسية، بدل التلذّذ بامرأة جميلة، سيترك عن طواعية هذه المرأة الجميلة إلى المشكل الرياضي: النتيجة هي أنّه من غير المعقول افتراض أن داعية إسلامياً سيجرّ حتماً وراءه كلّ المُستَمعين الشّهوانيّين، ذلك لأنهم لم يَميحوا إلى الملذات الحسّية إلاّ لأنهم لم يجدوا بديلاً أفضل منها، وبالتالي من الواضح أنهم إذا وجدوا البديل فسيتخلّون عنها دون أي عناء لكي يتمتّعوا بسعادة أكبر. ماذا يهمّنا، يقولون، إن كانت جنّة المسيحيين لا تُوفر لذّة أكل اللّحم الجيّد، والتمتّع بالنساء الحسناوات، الخ، بينما هي تُوفّر ملذات أخرى تَفوق بما لا نهاية كل ما تقدّمه المُتعات الحسّية الدنيوية؟ أنا أرى إذن أنه لا يجب الاعتقاد بأن أماني السعادة التي وعد الناس بها في الحياة الأخرى، هي التي جذبت المسيحيين الذين دخلوا في دينه. نقول تقريباً نفس الشيء بالنسبة لليهود، لأنهم يبدو من خلال العديد من مزامير داود، أن لديهم فكرة خارقة عن سعادة الحياة الأخرى.

كان من الهيّن إغراء الوثنيّين، نظراً إلى أن دينهم يتركهم في ظلمة دامسة حول تفاصيل بَهجَة الجنّة: لكن ألم يكن محمد حريصاً أشدّ الحرص على أن يؤكد للناس أن بعد هذه الحياة سيتذوّقون ملذات حسّية بأكثر متعة مما هو موجود في هذا العالم؟ ونحن نسأل: من أنتَ الذي تعِدُنا بذلك؟ من الذي قاله لك؟ من أين تَعلمَه؟ يجب إذن أن نفترض قبل كل شيء أن محمداً، بِغَضّ النّظر عن وعود جنّته، يقف على قدم المساواة مع كبار الأنبياء، وأننا قبل الاغترار به، والوقوع في شباك ملذّاته، كنا متيقّنين من أن له مُهمّة سماوية لإرساء الدين الحقّ. وهكذا فإن انتشار هذه الملّة لم يكن سببه الوعود بجنّة حسّيّة: لأن أولئك الذين

لا يؤمنون بأنه رسول من الله، لن يعيروا أيّ اهميّة لوعوده؛ وأولئك الذين يعتقدون أنه نبيّ بحقّ، سيتّبعونه حتى وإن لم يَعدهم إلاّ بسعادة روحية في العالم الآخر.

لا ينبغي أن نُوَفّر تعلّة للملحدين كي يُديروا ضد الإنجيل هذا الاعتراض كما لو أنه لم يَحُز كل تلك الفاعلية الهائلة لهداية الوثنيين إلاّ لأنه يَعِدهم بالجنّة أو بسعادة تفوق بما لا نهاية كل الملذات التي يمكن أن نتخيّلها. وخصوصا، علينا أن نكفّ عن التهكّم على الذّهب والياقوت وأنواع أخرى من الزّخارف لجنّة محمد، لأنكم تعثرون على نفس هذه الأشياء ونفس الأحجار الكريمة المَعروضة بدُكّان أفخم جواهري، في الوصف الذي يقدّمه كتاب الرؤيا عن الجنة[1]. ولا يُقال لي إن نفساً شهوانية عاتية تُفضّل أن تؤمن بالملذّات الجسديّة عوض الملذات الروحية، لأنه إذا كانت هناك أشياء تبدو لهذه النفس غير قابلة للتصديق فهي أساساً البعث (la résurrection) بحيث إنه إذا استطاع محمد أن يُقنعها بالبعث فإن مسيحياً كان قادراً أن يقنعها بالمُتْعات الروحية في العالم الآخر[2].

---

(١) الرؤيا ٢١، ١٨ ـ ٢٢. [«كانت المدينة مبنية من ذهب خالص شفاف كالزجاج النقيّ. أما سورها فمن اليشب، وهو قائم على اثنتي عشر دعامة مرصّعة بالأحجار الكريمة، كانت الدعمة الأولى من اليشب، والثانية من الياقوت الأزرق، والثالثة من العقيق الأبيض، والرابعة من الزمرد الذبابي، والخامسة من الجزع العقيقي، والسادسة من العقيق الأحمر، والسابعة من الزبرجد، والثامنة من الزمرد السّلقي، والتاسعة من الياقوت الأصفر، والعاشرة من العقيق الأخضر، والحادية عشرة من الأسمانجوني، والثانية عشرة من الجمشت. أما الأبواب الاثنا عشر فهي اثنتا عشرة لؤلؤة، كل باب لؤلؤة واحدة، وساحة المدينة من ذهب خالص كالزجاج الشفاف»].

(٢) نحن لا نزعم نكران أن محمد لم يقترح على العرب اغراء كبيراً بالسّماح لهم بتعدّد=

(N) اختار طريق الارغام بحدّ السيف لإخضاع الناس لدينه.] لا يجب أبداً أن نُفتّش في مكان آخر عن سبب انتشاره؛ كلّه يكمن هنا. أنا لا أنفي أبداً أن انقسامات الكنيسة اليونانية، حيث تكاثرت الفرق للأسف، والحالة المتردّية التي آلت إليها الإمبراطورية الشرقية، وفساد الأخلاق، كانت عوامل مساعدة لتحقيق غايات هذا الكذاب؛ لكن موضوعيا، كيف السبيل إلى الصّمود أمام جيوش جرّارة تفرض الخنوع؟ اسألوا تِنّينيّ فرنسا (les dragons de France) الذين مارسوا هذه المِهنة عام ١٦٨٥: سيُجيبونكم بأنهم قادرون على جَعل الأرض كلّها تذعن للقرآن، بشرط أن يُوَفَّرَ لهم الوقت الكافي لتطبيق مبدأ: «اجبرهم على الدخول (*compelle intrare*)».

مِن الأكيد أن محمّداً، لو توقّع أنه ستتوفر لديه فيالق جيّدة مُنصاعة لأوامره ومَضمونة الانتصار، لما كلّف نفسه عناء صناعة وَحي والتّظاهر بالتّقوى في كتابه وأن يَمزج بينها قِطعا مُقتَلَعَة من اليهودية والمسيحية. دون أن يَتعثّر في كل هذه العوائق كان سيكون متيقّنا من أنه سيفرض دينه في أيّ ركن من أركان الأرض التي أمكن لسلاحه أن يطاله وينتصر فيه. وإذا كان شيء ما قادراً على أن يَحملني على الاعتقاد بأن هناك تعصّبا في عمَله، يجب رؤية أشياء لانهائية في القرآن لا يمكنها أن تبدو ضرورة إلاّ في حالة لا يراد أبداً استعمال الإكراه. لكن هناك الكثير من الأشياء في هذا الكتاب، عملت منذ الانتصارات الأولى لسلاح لمحمد.

=الزوجات؛ لأنهم كانوا ميّالين بشدّة للممارسة الجنسية. «إنه شيء لا يصدّق بأي شراسة يتعاطون الجنس نساء ورجالاً». (.Amm. Marcellin, lib. XIV, cap
.(IV

(O) نحن نضمن هكذا للديانة المسيحية واحدة من أقوى البراهين على ألوهيتها.] الإنجيل بُشّر به من طرف أناس بلا اسم، بلا تعلّم، بلا بلاغة، مضطهَدين بوحشية، محرومين من أي تضامن إنساني، ولكن هذا لم يمنع من أن يستقرّ في وقت قصير في كامل أرجاء المعمورة. إنها حقيقة لا يمكن أن ينكرها أحد، وتُبرهن بوضوح على أنها ديانة إلهية. لكن هذا البرهان سيفقد من قوّته حينما نُعاين كنيسة كاذبة قد حازت على انتشار كبير بوسائل مشابهة. ومن الأكيد أنه سيتمّ تحطيم هذه الحجّة إذا استطعنا أن نبيّن أن ديانة محمد لم تشهد انتشارها الواسع بفضل عنف السلاح. ذلك لأنهما شيآن بيّنان بالتساوي في المعالم التاريخية: إحداهما، أعني الديانة المسيحية، قد استقرّت وانتشرت دون مَعونة ذراع السلطة الدّنيويّة؛ الأخرى، وهي ديانة محمد، انتشرت عن طريق الغزو. لا يمكن صياغة أي اعتراض عقلانيّ ضد حجّتنا، تحت تعلّة أن هذا الحقير الكاذب (cet infâme imposteur) اجتاح بتعاليمه الباطلة عدداً كبيراً من الأقطار. يكفي أن لدينا القرون الثلاثة الأولى من المسيحية لتغطية التوازي؛ لأن دون ذلك سيكون من الجنون أن نعيب على المسلمين العنف الذي استعملوه لنشر قرآنهم: سَيُسْكِتوننا في الحين، وما عليهم إلاّ أن يستشهدوا بأقوال جوريو (Jurieu) هذه: «هل يمكننا أن ننفي أنّ الوثنية قد سقطت على أيدي سلطة أباطرة روما؟ بإمكاننا أن نؤكد، دون مواربة، أن الوثنية كانت ستكون قائمة إلى الآن، وأن ثلاثة أرباع أوروبا ستبقى وثنية، لو أن قسطنطين وخلفاءه لم يستخدموا القوّة لِمَنعها. إن أباطرة روما المسيحيين هم الذين حطّموا الوثنية، بتدمير مَعابدها، بمحو مَعالمها من الوجود، بمَنْع عبادة آلهتها

الباطلة، مُقرّين حَمَلَة الإنجيل مكان أنبيائهم الكذبة وعلمائهم المُزوّرين، بتحريم كتبهم، وبنشر التعاليم الصحيحة»[1].

انظروا إلى الرسالة الثامنة من «لوحة السوسينية (Tableau du Socinianisme)» في الصفحة ٥٠١، أين نفس هذا الكاتب يؤكّد أنه «دون سلطان الأباطرة فإن مَعبَد جوبيتار (Jupiter) ومارس (Mars) كانا سيبقيان قائمين، وآلهة الوثنية ستكون لها إلى اليوم عبّاد لا يُحصى عددهم». يجب الاعتراف بالدَّيْن: إن ملوك فرنسا فرضوا المسيحية في بلاد الفرّيسيين وبلاد السّاكسون بالطّرق المحمّدية، وقد استُعمل نفس العنف لإرسائها في الشمال. هذا يبعث الرعب في قلوب الناس المعتدلين خصوصا حينما يقرؤونه في مؤلفات السيد أورنهيالمس (Ornhialms)[2]. لقد استُخدِمَتْ نفس الأساليب ضدّ الطوائف التي تجرّأت على إدانة البابا، وستُستَعمل في الهند كلّما اقتُدِر عليه[3]: ومن كل هذه التصرّفات نستنتج بوضوح أنه لا يمكننا أن نصوغ حجّة ضد فكرة أن محمداً نشر دينه بالإكراه، أريد أن أقول عدم الرغبة في قبول الآخرين.

لأن هذا ما يمكن أن يقوله بمُحاجة الشّخص ذاته (*ad hominem*): لو أن الإكراه كان سيّئاً بطبيعته، لما أمكنكم استعماله بمشروعية على

---

(1) Jurieu, *Droits des deux souverains*, p. 280.

يقول في ص، ٢٩٧، ٢٩٨ «من المحال أن يتمّ الغاء البابوية إلاّ بسلطة الأمراء الذين أرسوها، وأن الوثنية كانت ستكون حية ومهيمنة تحت ظلّ التسامح».

(2) Intitulé: *Historiae Suecorum Gothorumque ecclesiasticae* libri IV. Voyez l'*Histoire des Ouvrages des Savants*, mois de novembre 1690, p. 109 et suiv.

(3) Voyez, dans la remarque (AA), les paroles du jésuite Frois.

الإطلاق، لكنّكم أنتم استَخدمتُموه منذ القرن الرابع حتى الساعة الحاضرة، وتزعمون أنكم كُنتم على حق: ينبغي عليكم إذن أن تَعتَرفوا بأنّ هذا النّهج ليس هو بالشيء القبيح في حدّ ذاته وبطبيعته، وبالتالي فإنني مُبرَّر في استعمالي إيّاه منذ السنوات الأولى لِدَعوَتِي. وعلى أيّة حال مِن الخلف الزعم بأن شيئاً ما هو إجراميّ للغاية في القرن الأول، يغدو مُباحا في القرن الرابع، أو أن شيئاً أصبح حسنا في القرن الرابع لم يكن كذلك في الأول. يمكن أن نزعمه لو أن الله يسنّ قوانين جديدة في القرن الرابع: وبعد، ألم تؤسّسوا صحة تصرّفاتكم، من عهد قسطنطين إلى يومنا هذا، على كلمات الإنجيل هذه: «أجبرهم على الدخول»[1] وأرسَيتُموها على سلطة الحكّام؟ كان بإمكانكم، إن استطعتم إليه سبيلاً، أن تستعملوا القوّة بَعد يومٍ واحد مِن قِيَام المسيح. بل إن بلاّرمين (Bellarmin) والعديد من الكُتّاب المُوالين للبابا، يُقرُّون بذلك؛ لقد أكّدوا[2] على أن المسيحيين الأوائل، إن كانوا لم يخلعوا نيرون (Nerone) وديوكلزينوس (Deoclesianus)، فهذا راجع إلى فِقدانهم القوة الدنيوية للقيام به؛ لكن، من وجهة نظر شرعية، لهم الحق في ذلك، نظراً لأنهم غير مُجبَرين على أن يُحكَموا من طرف ملك ليس مسيحيا، إن عمل على صَدّهم عن الإيمان[3]. لقد كانوا إذن مُلزَمين على أن

---

(1) Voyez, sur tout ceci, le *Commentaire philosophique sur Contrains-les d'entrer*, Ire part., chap. VII.

(2) Bellarmin, *de Rom. Pont.*, lib. V, cap. VII, § quod si, cité par Daillé, *Réplique à Adam*, IIe part., chap. XXI, p. 125.

(3) Bellarmin, *ibidem*, § probatur hujus, *cité par* Daillé, *là même*.

يتّخذوا حاكما يُحقق ما جاء به الإنجيل ويقضي على الوثنية بطريق السلطة.

السيّد جوريو لا يَبتعد كثيراً عن رأي بِلاّرمين، فهو يرى أن أغلب المسيحيين الأوائل لم يَتَحلّوا بالصبر إلاّ بسبب الضعف والعَجز[١]؛ ورغم أنه لا يَعيب عليهم سلوكهم الذي اتخذوه بعدم حمل السلاح ضد أمرائهم، ومع ذلك فهو يقضي بأن لديهم الحق في تصرّفهم هذا، وأنهم لو حملوا السلاح لما استطعنا أن نلومهم. فهو يَستَحسِن دون شك فكرة أنهم، لو كانوا قادرين، لوضعوا على العرش قسطنطين وثيودوس منذ القرن الأول من حُكم نيرون.

لاحظوا، أرجوكم، أنه لا يَسرد، كمجرّد حدث تاريخي، الطريقة التي دُمِّرت بها الوثنية، بل يحكم عليها كعمل صائب، لأنه يقارنها بسلوك البروتستانت، وبتلك التدابير التي سيَتّخذها الأمراء الكاثوليك قريبا، كما يزعم، لتحطيم الكنيسة الرومانية. الأمثلة الثلاثة التي يقدّمها لتبرير طريقة السلطة المستخدمة شرعيا، هي ملوك بني إسرائيل، الأباطرة المسيحيين، والأمراء البروتستانت[٢]. «هؤلاء - يقول - قد أزاحوا أزلام البابويّة من دُولهم بانتزاعهم منابر الوعظ، بإحلال محلّهم دكاترة قديسين في التعاليم، وخالصين في الأخلاق، بحرق الصور، بدفن الآثار المقدسة، ويمنع كل عبادة للأوثان. بعيدا عن أن يكونوا بفعلهم هذا قد تصرّفوا ضد شريعة الله، فهم قد اتّبَعوا كلّياً أوامره. ذلك لأن إرادته هي التي سمحت لملوك الأرض بتَجريد الدابّة وكَسر تمثالها.

---

(1) *IX*e, *lettre pastorale* de l'an 16, p. 202, *édit.*, *in*-12.

(2) Jurieu, *Droits des deux souverains*, p. 289.

لا واحد من البروتستانت إلى حدّ الآن وجد ضد ذلك أي اعتراض، ولا أي نفس سَويّة باستطاعتها أن تفهم الشيء بخلاف هذا. الأشياء كانت دائماً هكذا، وإن شاء الله، ستسير قُدما على نفس الوتيرة، رغم مَلاحِدتنا أو مُغَفَّلينا»[1].

راجعوا الصفحة ٢٨٤ من كتابه، ستجدوا هذه الكلمات الشهيرة: «لأجل المنفعة الطفيفة التي تَستجلِبونها اليوم[٢] فإن الكنيسة تَجني خسارات كبيرة، وأنتم أنفسكم ربما في بضعة سنين ستُجبَرون على سحب كلمتكم، ودون شك ستفعلونه. ذلك لأنه إذا عمد ملوك فرنسا وإسبانيا إلى استعمال سلطتهم لطرد البابوية من بلدانهم، كما فعل ملوك انجلترا والسّويد، بَعيدا عن أن يُعَاب عليهم ويُنظَر إلى عملهم هذا كعمل قبيح، سَتَرَوْنَه عملا جيّدا. كونوا متيقّنين أن ذلك يجب أن يحصل كذلك؛ لأن روح القدس يقول إن ملوك الأرض الذين مَنَحوا قوّتهم إلى الدّابة سيَسْحَبونها منها، وسيأكلون لحمها. إن سلطة ملوك الغرب هي التي أسّست إمبراطورية البابوية، وسلطتهم هي التي ستُحطّمها. وسيكون هذا مطابقا كليا لتصميم الله وإرادته: وبالتالي لن تكون لدينا أية حجّة للوقوف ضدها. لكي تكونوا إذن مُنتَظِمين في مشاعركم، التَزموا بالحقيقة التي لا تتبدّل، ولا تُكَيّفوها أبداً بحسب المصالح التي تتغيّر كل يوم».

لاحظوا جيّداً كيف أن جوريو يؤسس لمبدأ ثابت وساري في كل العصور، مفاده أن طريق السلطة الدنيوية هو طريق صحيح لنشر الدين.

(1) *Là-même.*

(٢) يعني، بلاط فرنسا الذي اقتنع بأنه يجب التسامح مع الأديان الخاطئة.

يجب عليه إذن، إذا دخل في مُماحكة مع المسلمين، أن يتخلّى عن حُججه ضد الطريقة التي انتشرت بها ديانتهم. ذلك لأنه لم يكن - يقول جوريو - بوضع «السيف تحت حُنجرة المسيحيين لكي يكفروا بالمسيحية ويَعتنقوا الإسلام، وإنما بالتّفْقير، والوضاعة، والبؤس والجهل التي سحلوا فيها المسيحيين»[1]، طُرُقٌ أقل قساوة بكثير، وأبطأ، من تلك التي يقول إنها ستُستخدم لإزالة البابويّة. راجعوا الملاحظة (AA)، في النهاية.

(P)... لكننا نخسر الحجّة التي تُوفّرها سعة انتشاره.] لن أبرح هذه المادّة بَعد: بقي لي أن أدلي بملاحظة لها بعض الوزن. إن آباء الكنيسة قدّموا حجةً تُستعمل عن خطأ ضد إصلاحيّي القرن السادس عشر. ذلك أن سعة انتشار الإنجيل مَنحت لآباء الكنيسة دليلا قَويماً ضدّ اليهود، وضدّ الفرق التي تشكّلت في صُلبِ المسيحية، لأنها تُظهِر تَحقّق نُبوءات الكتب المقدسة التي تكهّنت بأن معرفة وخدمة الإله الحق تحت المسيح لن تكونا قط محصورتين كما كانتا من قبل في ركن صغير من فلسطين بل إن الأمم كلّها ستصبح شعبَ الله[2]. هذه الحجة تَصْرَع اليهود والهراطقة، وقد حافظتْ على قوّتها وصولا إلى عصر محمد. لكنْ منذ عصره وجب التّخلّي عنها، نظراً إلى أننا إذا حسبنا عامِلي الامتداد والتوسّع فقط فإن ديانة هذا النبيّ الكاذب يمكنها أن تنسب لنفسها التنبؤات القديمة مثلما كانت قد نسبتها المسيحية لنفسها. لا نستغرب كثيراً إذا كان رجال مثل بيلارمينو (Bellarmin) وبعض

(1) *IXe lettre pastorale* de l'an 1688, p. 196.

(2) Voyez le père Thomassin, *de l'Unité de l'Église*, tom. II.

المُجادِلين الكبار قالوا عموماً إن الامتداد هو علامة الكنيسة الحقّة، وادّعوا على هذا الأساس أنهم ربحوا قضيّتهم ضد الكنيسة البروتستانتية.

لقد وصل بهم التّهوّر إلى وَضْع حتى الرّخاء الماديّ من بين أمارات الكنيسة الحقة[1]. كان من السهل التوقّع بأنه طبقا لهذين الأمارتين فإن الكنيسة المحمدية ستصبح عن جدارة الكنيسة الحقة، بدل المسيحية. ديانة محمد لها امتداد أوسع من المسيحية، هذا لا يمكن الشكّ فيه: انتصاراتها، فُتُوحاتها، غَلَبَتُها هي أكثر اشعاع من كل ما يمكن للمسيحيّين أن يفتخروا به في هذا النوع من الازدهار. إن أعظم المَشاهد التي يمكن أن يُبدعها التّاريخ هي دون شكّ أعمال المسلمين. ما الشيء الأروع من إمبراطورية العرب الممتدّة من جبل طارق حتى الهند؟ هل سَتَسْقط؟ ها هم الأتراك من جهة، والتتار من جهة أخرى يحافظون على عظمة وإشعاع محمد. فتّشوا لي من بين الأمراء المسيحيّين عن غُزاة يُمكنهم أن يُضاهوا صلاح الدين، جنجيس خان، تيمورلنك، محمد الثاني، سليمان القانوني. ألم يُطارد العربُ المسيحيةَ حتى مشارف جبال البِيريني (Pyrénées)؟ ألم يَقوموا بمائة غزوة سلب ونهب في إيطاليا وصولا إلى قلب فرنسا؟ ألم يَدفَع الأتراك بفتوحاتهم حتى تُخوم ألمانيا، وحتى خليج البندقيّة؟ عصبة الأمراء المسيحيين تلك، وحمَلاتهم الصليبيّة التي استنزفت، بالرجال والمال، الكنيسة اللاتينية: ألا ينبغي أن نُقارنها بِبَحرٍ يدفع بأمواجه من الغرب إلى الشرق، لكي تتحطّم

(١) «جرجس المكين في تاريخ العرب يصف بوضوح التقدّم السريع للإسلام، وانتصاراته ضد المسيحيين؛ وهكذا أنا لا أملك إلاّ أن أستغرب كيف أن بلارمينو ارتبك في هذه الحجة التافهة جداً والغير حاسمة». هوتنغر، تاريخ الشرق، ص، ٣٣٩.

لاصطدامها بالقوى المحمّدية مثل تصادمها بساحلٍ صخريّ حادّ؟ كان من الواجب أخيراً التّراجع أمام نَجْم محمّد، ويدل طلَبه في آسيا، اكتُفي، لحسن الحظّ، بصدّ هجوماته في وسط أوروبا. انظروا في الأسفل[1] إلى المعالم الخالدة التي أقامتها المسيحية لمجابهة تفوّق حظوظ الإسلام.

[أتوقّف هنا لكي أنقل الملاحظة (D) من المقال الذي أحال عليه بايل للتوّ، أعني مقال «محمد الثاني Mahomet II»].

(D) هناك كتّاب بارزون في المسيحيّة... يرون أن الازدهار هو أمارة القضيّة العادلة.] لقد برهنتُ على تهافت هؤلاء الكتّاب في مقال «محمد». وقد أشرتُ أن بخصوص مادة الانتصارات فإن نجم الديانة المحمدية يتفوّق على نجم المسيحية وأنه إذا وجب الحكم على صحّة هذين الدينين انطلاقاً من حَجم النّجاح الأرضي، فإن الديانة المحمدية ستكون هي الأفضل. إن المسلمين مُتيقّنون من هذا أشد ما يكون عليه التيقّن بحيث إنهم لا يعرضون كبرهان أمْتَن على عدل قضيّتهم إلاّ الازدهار اللامع الذي حباهم به الله. هذا ما يُعلِمنا به راهب، مَكَث طويلا في تركيا، بخصوص الأسباب التي جعلت من هؤلاء الكفرة متشبّثين بدينهم: «السبب الثاني هو انتصاراتهم المتواصلة على المسيحيين؛ والتي هي ذات وزن كبير عند البعض. لذلك يسمّون أنفسهم الغُزاة المنتَصِرين ويتباهون بذلك كما لو أنهم استحوذوا على العالم أجمع. فهم يدعون للفاتحين لا سيّما في كل مَحافلهم،

(١) في المقال اللاحق، ملاحظة (D).

ويشكرونهم باستمرار بعد افطارهم. إنّهم يَفتَخِرون بأنفسهم ويسمّون المسيحيين، بكل احتقار، نساء، وهُم رجالهم. ومنعيا للتشجيع على ذلك أكثر فأكثر، فهم يَصفون انتصارات الأسلاف، يَتغنّون بها، يُمجّدونها ويُشهرونها»[1].

نَضُمّ شهادة أخرى إلى هذا النصّ: «إن نجاح سلاح هؤلاء الكفرة هو حجة أخرى يستعملونها لتدعيم حقيقة دينهم. ذلك بما أنهم يعتقدون أن الله هو فاعل كل الأحداث الجيّدة، يستنتجون أنه بقدر ما ينتصرون في حروبهم، بقدر ما يظهر أن الله رَاضٍ عن حميّتهم وعن دينهم. إن هذه القناعة هي التي جعلت الأتراك يَكرهون ويَمقتون اليهود على رأس شعوب العالم أجمع. يُسمّونهم الضالّين، لأنهم لا يملكون مستقرّا في الأرض، وليس لديهم أمير يحكم أمّتهم، يَحميهم ويدافع عنهم»[2]. إن الرّاهب الذي ذكرتُه يقول لنا شيئاً جديراً بالاهتمام، ألا وهو أن الأتراك، ينظرون إلى أنفسهم على أنهم الرجال بامتياز، ويعتبرون المسيحيين نساء. كيف يتّفق هذا مع تواريخنا التي تُعلِمنا أنّ الأتراك لم يَهْزِمُوا أبداً المسيحيّين إلاّ وكانوا عشرة أو اثنتي عشر ضدّ واحد، وخَسِروا عشرين مرّة أكثر مما خسره المسيحيون؟ إذا كان هذا صحيحا، ألا ينبغي على الأتراك أن يقرّوا بأن المسيحيّين هم جنود حاذقون؟ أكانوا سيقولون إنهم نساء؟ لا أدري ما أقول في هذا الصدد، لكنني متيقّن من جهة أن مسيحيّينا الغربيّين كانوا دائماً جنودا مَهَرَة على الأقلّ على قدم المساواة

(1) Septem Castrensis, *de Moribus Turcarum*, cap. XI, p. 40, apud Hottinger, *Hist., orient*, p. 338.

(2) Ricaut, *État présent de l'Empire ottoman*, liv. II, chap. III, p. 324.

مع العثمانيّين، ومن جهة أخرى إن تواريخنا مملوءة أساطير تمسّ عدد القتلى وعدد المحاربين: تُضخِّمهم بشكل مَهول من جهة الكفار، وتقلّصهم من الجهة المقابلة. إنها تفعل ما يفعله مراسلو صحافة كلّ حزب في الحربين الأخيرين عند محاصرة نامور (Namur)(١). بالتّداول مراسلو المُحاصَرين يتحدّثون عن عديد الهجمات الخيالية حيث فَقَدَ العدوّ عدداً ضخما من المقاتلين، بالتداول المُراسَلات تُضَخّم خساراته في الهجمات الفعلية إلى حدّ أن من يَجمع معاً عدد المَقتُولين والجرحى والفارّين والمرضى في هذه الارسالات، فلن يَبقى واحد من جيش المُحَاصِرين... مَهما كان الأمر، الأشياء تغيّرت جدّا؛ الأتراك برهنوا، سواء في هنغاريا أو في اليونان منذ عام ١٦٨٣، على أنهم جنود بائسون، وأنهم لا يستطيعون الصّمود أمام فيالق المسيحيّين الأقلّ منهم عددا. لو كانوا دائماً هكذا بائسين، لما اتخذوا من الازدهار أمارة الدين الحق. لقد مُنِيُوا بخسارات فادحة في أوروبا؛ صُحفيّونا يزعمون أنهم شهدوا كوارث مفزعة في الشرق (آسيا)، وكم من مرّة قرأنا في الصحف أن مكّة والقاهرة الكبرى والمُحافظات المجاورة قد نُهِبت وأن الامتعاض كان كبيراً في القسطنطينية بسبب هذه الاضطرابات وهذه الانتفاضات؟ إنها ثرثرة ومخادعات سياسية، لغاية اقناع الشعوب أن كل فيالق الإمبراطورية العثمانية ستحلّ عاجلا على مشارف نهر الرّين (Rhin).

نتيجتان أو ثلاث من الهيّن استخراجها: يبدو أن الأتراك، منذ حدوث هذه الكوارث، يجب عليهم أن يشكّوا في أن دينهم هو الأحسن، ومع ذلك فإنهم لا يفعلونه أبدا: هم ليسوا أقل كفاءة من

(١) الأولى في سنة ١٦٩٢، الثانية في ١٦٩٥.

الناس الآخرين على التفكير بالانسجام المنطقي المطلوب والتقيُّد بمبادئهم؛ إنهم يقومون بما يقوم به الارثودكسيّون: ينسبون مَصائبهم لا إلى دينهم وإنما إلى قلّة العناية به. فليُسمَح لي بقول كلمة عن هشاشة تفكير الإنسان إزاء الشدّة والازدهار. عندنا هنا مبادئ متضاربة: يُقال لكم إن أولئك الذين يُريدون العيش بحسب التّقوى هم عرضة للاضطهاد، وأن التّقوى لها وعود الحياة الدّنيوية والأخرويّة. يُقال لكم إن الله يترك الأشرار يَتنعّمون في الحياة الدنيا، ولو تَمَعّنّا في الأمر عن كثب لأدركنا صحّة قَولة تِيت ـ ليف (Tite-Live) من أن أولئك الذين يخشون الله يَنجحون في مَسْعَاهم، وأن الكفار لهم الحظّ المعاكس[1]. ليس هذا فقط: في التشبّث بالأطروحة الكلّية، من الحصافة بمكان، عدم الحكم على الأشياء من خلال الحدث العيني، وأن أولئك الذين يقومون بذلك يستحقون أن يكونوا تعساء[2]. لكن فلنتصوّر حزبين كبيرين متضادّين، أحدهما أزمع على انجاز عمل عظيم: إذا نجح فهو لا يمتنع من استنتاج أنه على حقّ، ومن القول بأن هذا النّجاح الباهر هو علامة على رضاء الله. الحزب الآخر يؤكّد، على عكس من ذلك، على وجوب التقيّد بالأطروحة العامّة وبمبدأ [الشاعر الروماني أوفيد «Ovide»]: «النتيجة تُبرّر العمل. لَيتَ النّجاح يَغيب عمّن يريد أن يَحكم على العمل بالأحداث» (careat successibus opto, etc). وإن الله غالباً ما

(1) *Invenientis omnia prospera evenisse sequentibus Deos, adversa spernentibus.* T. Livius, *lib. V.*

(2) ... *Careat successibus opto Quisquis ab eventu facta notanda putat.* Ovid., *Epist. Phyll.*, ad Demophoont.

يسمح، لمعاقبة البشر، بِنَجاح الأشرار في مخطّطاتهم الخبيثة. ولكن، لو قام هذا الحزب، صاحب المواعظ الأخلاقية، بإنجاز عمل ذي قيمة ورآه قد تحقّق، لأعرَضَ عن سماع الحديث عن الأطروحة العامة، ولقال هو بدوره: إن النّجاح الجيّد هو علامة تُثبتُ أحقيّة هذا العمل، وأن الله راض عنه، بما أنه قد أيّده بنعمته المقدسة. الحزب الآخر عند هذا الحدّ لا يخجل من الاتيان والقول إنه لا يجب الحكم على الأشياء من خلال الحدث العيني، «*careat successibus opto, etc*»، وأن يُنزل مائة مواضع شائعة جميلة. هل هناك شيء أكثر إراحة للنّفس من هذا؟ ألا يعني امتلاك مبادئ مثل الملابس، واحدة للصيف وأخرى للشتاء[1]؟

[انتهت ملاحظة بايل. نعود إلى مقال محمّد ونواصل من حيث انتهينا]

يمكننا أن نُطبّق على المسلمين والمسيحيّين ما لاحظه سَالّوست (Salluste) حول الأثينيين والرومان: «إن انجازات الأثينيين، كانت حسب رأيي، عظيمة ومتألقة، إلاّ أنّها على الرغم من ذلك أقل قيمة من الشهرة التي لفّتها. لكن بما أن في مدينتهم بَرزَ كُتّاب عباقرة فإن انجازات الأثينيّين أصبحت موضع تقدير في جميع أنحاء العالم باعتبارها أعمال عظيمة. وهكذا فإنه تمّ الحكم على جدارة أولئك الذين أنجزوا تلك الأعمال بقدر ما استطاعت تلك العقول اللامعة تمجيدهم في

(1) *Appliquez ici ce que disait saint* Hilaire, *lib. II*, ad Constant., contre les *annuas atque menstruas de Deo fides*, qui étaient plutôt *fides temporum quam Evangeliorum*. Voyez aussi *l'Avis au Réfugiés*, p. 85, et, *tom. II*, p. 379, *la fin de la remarque* (G) *de l'article* ARIUS.

كتاباتهم. الشعب الروماني، على العكس من ذلك، لم تكن لديه مثل هذه الاهتمامات، لأن الرجال ذوي المواهب العالية كانوا أيضاً الأكثر نشاطاً في الحياة العامة ولا واحد منهم مارس فعاليّة ذهنيّة دون تلك الجسديّة؛ الرجال الفضلاء يُحبّذون الفعل على الرّواية، يفضّلون أن يكونوا مُمَجَّدِين من طرف الآخرين لأجل أعمالهم الجليلة بدل أن يَروُا هم أنفسهم أعمال الآخرين»[1].

المسلمون أكثر تَمَرّسا على فنّ الحرب من الدّراسة لم يؤلّفوا تواريخ تساوي أعمالهم؛ لكن المسيحيّين غَزِيرون بالرجال المفكّرين، ألّفوا تواريخ تتجاوز كل ما فعلوه. هذا النقص في المؤرخين الجيّدين لم يمنع هؤلاء الكُفّار من القول بأن السماء في كل الأزمان منحت شهادة على قدسيّة دينهم، عن طريق الانتصارات التي حققوها. كان عليهم أن يَتَخلّوا عن هذه السفسطة، وأن لا يُحاكوا بصيغة عَرجاء، كما فعل أب من الأوراتوار. كِتابُه فاضِح وذو نتائج وخيمة، ذلك لأنه يجري على هذا الافتراض الخاطئ وهو أن الكنيسة الحقّة هي تلك التي أفاض الله عليها من النّعم الدّنيوية. أن تُفرَغ المماحكات الدينيّة عن طريق هذه القاعدة فإن الكنيسة تَخسر للتوّ قضيّتها. الحصافة لا تحتمل أن تُوضَع موضع أخذ وردّ. يجب الإقلاع عن الانزواء في مواقع إيمانية وإدارة المماحكة على قاعدة سعة الانتشار والعدد الكبير من الانتصارات. لا أدري هل يجب المُجازفة بالخضوع لحكم الأخلاق؛ لكن لو أن الكفار سمحوا بأن تُعطَى الأفضلية في الحكم للرّوح، للتّحقيق والتّدقيق، للفضيلة

(1) Sallust., in *Bell. Catilin.*, p. 14.

العسكرية، لوجب أخذهم حرفيًا، وفي هذه الحال فإنهم سَيَخْسرون حتما قضيّتهم. إنهم تماماً في منزلة أدنى من المسيحيّين إزاء هذه الأشياء الثلاثة. ميزة جيّدة أن تكون أحذق منهم في فنْ القتل والقصف، وإفناء الجنس البشري[1]. لاحظوا، أرجوكم، أن الديانة المحمّدية كانت لها في السابق نصيب كبير من المجد الدنيوي، الذي يتمثل في العناية بالعلوم. لقد ازدهرت في إمبراطورية العرب بإشعاع كبير[2]، وأنتجت عقولا جميلة، شُعراء فطاحل، فلاسفة عظام، فَلَكيّين مشاهير، أطبّاء مَهَرة، لكي لا نتحدّث عن العديد من الخلفاء الذين اشتُهروا بصفاتهم الأخلاقية، وبالفضائل السلميّة التي لا تقلّ قيمة عن الفضائل الحربيّة. ليس هناك إذن أي نوع من الازدهار المادّي لم تتمتّع به هذه الطائفة بامتياز متفرّد.

قلتُ إنه ليس مضمونا جداً الاحتكام إلى التّصرفات الأخلاقية للتأكّد من أن المسيحية هي الكنيسة الحقّة. هذا يتطلّب تفسيراً صغيراً. لا أزعم أن المسيحيّين هم أكثر خلاعة من حيث الآداب من الكفار؛ لكنني لا أجرؤ القول إنهم أقلّ منهم. أخبار الرّحّالة لا تتوافق مع بعضها: مِنهم مَن يُمعِن في الاشادة بصفات الصدق، والرحمة والإخلاص التي يتميّز بها الأتراك، ويصوّرون النساء الأتراك كما لو أنهنّ العفّة والاحتشام عينهما. ومِنهم مَن يتحدّث بسُوء عن عادات هذه الأمة. هوتّنغر يستشهد بكاتبٍ مُعجَبٍ بفضيلة الأتراك ويعارضها بتصرّفات المسيحيين: «لا

(1) Voyez les *Pensées sur les Comètes*, num. 141.

(2) Voyezl'*Histoire ecclésiastique* d'Hottinger.

يسعني إلاّ التعجّب عندما أرى السلوك المتواضع الذي يتحلّين به النساء الأتراك، بالمقارنة مع مُجون، وخلاعة تصرفات النساء المسيحيّات»[1]. النساء الأتراك لا يكشفن قط عن وجوههن، ونادرا ما يَخرجن من بيوتهنّ، ويَعتقدن أن ركوب الخيل مجلبة للعار. حديثُ الزوج مع زوجته في بيته هو من الأدب بحيث لا يلاحظ فيه أي تشنّج «إضافة إلى ذلك فإن الرجال في بيوتهم لا يصدر منهم أبداً، سواء في الأفعال والتصرفات أو في المحادثات إشارة فسق أو خداع، يمكن ملاحظتها»[2].

السيّد شاردان (Chardin) يُعلمنا بأن في بلاد فارس يتزوّجون دون أن يرى بعضهم البعض «وأن رجلاً لا يرى امرأته إلاّ ليلة الدّخلة، وأحيانا لا يَقضي حاجته الجنسية إلاّ بعد أيام عديدة من دخولها بَيته، الحسناء تَتمَنّع وتَختفي بين النّسوة، أو لا تريد من الرجل أن يضاجعها. هذه التصرفات غالباً ما تقع بين الأشخاص ذوي الرّفعة، لأن في عرفهم من الخلاعة الاقدام على الفعل الجنسي من الوهلة الأولى. فتياتُ العائلة المالكة باستعمالهنّ لهذه الطريقة، يَحتَجْن إلى شهور لتَرويضِهنّ»[3]. لكن هذا الكاتب يتكلّم بطريقة مغايرة عن الجُورجِيّات (Géorgiennes)،

---

(1) Septem Castrensis, *de Turcarum Moribus*, cap. XII, apud Hotting., *Hitor. Orient.*, p. 311. Septem Castrensis *est un moine qui fut longtemps prisonnier parmi les Turcs.*

(2) *Idem, ibidem.*

(3) Nouvelles de la République des Lettres, *octobre* 1686, p. 1139, *dans l'Extrait des Voyages* de M. Chardin.

اللواتي تَعتَنِقن المسيحية؛ فبعد أن نسب إلى الرجال الجورجيّين كل العيوب التي يمكن تخيّلها، أضاف أن «النساء لا هنّ أقل رذيلة ولا أقلّ شرّ؛ لهنّ ميل كبير للرجال، ومن الأكيد أنهنّ مساهمات بقسط أكبر منهم في نشر هذا التيّار الجارف من النجاسة (ce torrent d'impureté) الذي يجتاح بلدهم كلّه»[1]. المؤلّف الذي ذكره هوتّنغر لا يقلّ اعلاء لأخلاق الأتراك فوق أخلاق المسيحيّين، ولا من سلوك الأتراك فوق سلوك المسيحيين[2].

هناك أخبار أوردها [رحّالة آخرون] يتّهمون فيها الأتراك بأعمال في غاية الخلاعة، ولا ينسون ذكر تعدد جواريهم اللواتي يشترونها من سوق النخاسة، وكيف يُقلّبُون ويَلمسون أي مكان [من أجسادهنّ] قبل الاتّفاق على السعر[3]، تماماً مثلما يفعل الجزّارون قبل أن يشتروا بعض الدّواب. «كما كتب [البابا] بِيوس الثاني «Pius II» (الرسالة ١٣١ وبوسكياروس «Boskhierus») من فيليب نفسه ١٠، ص. ٣٦٢) عن الأتراك بأنهم رجال لحّاسون لواطيّون ونساؤهم سحاقيّات. يستمتعون بكل امرأة يصادفونها، إضافة إلى أنهم لا يغتصبون العذارى فقط (يكتب بارثلومي جِيُورجيفيتس) على أعين آبائهم، ولكن هؤلاء الرجال ذوي الشهوة الجنسية الجامحة يَغتصبون أيضاً كل الأسرى الذكور الذين

(1) *Là-même*, p. 1139.

(2) Septem Castrensis, de Turcarum Moribus, cap. VIII, p. 38, apud Hotting., *Hitor. Orient.*, p. 304.

(3) *Conférez ce qu'on cite de Suétone, tom. VI,* p. 621, citation (64) de l'*article* FULVIE.

يعتقلونهم (بوسكياروس، ص. ٦١ و٨٩). في سوق النّخاسة (*in foro venales*)، يَعرضون الرجال والنساء عُرَاة، ويُقلّبونهم ويَتلمّسونهم علانية أمام الجميع. وحتى عندما تتطلّب الطبيعية شيئاً من الحياء، فإنهم يأمرونهم بالجَري والقفز عُراة لكي تُكشَف نقائصهم، وأحوال جنسهم وأعمارهم ومحاسنهم ومساوئهم»[١].

لدينا بابًا يتّهم الأتراك باقتراف أعمال قذرة جدّاً، لكن ما ألّفه كتّاب كاثوليك عن بلاط البابا في روما، وما يُمكننا أن نكتُبَه عن العديد من الأمم المسيحية، ليس بأفضل، بحيث إننا يمكن أن نؤكّد عموماً أنّ المسيحيّين والمسلمين ليس لديهم أيّ شيء يُعاتبون عليه بعضهم البعض، وأنه إن كانت هناك بعض الفوارق في عاداتهم السيّئة فالسبب هو اختلاف المناخ وليس اختلاف الدين.

(Q) لم يَضع اطلاقا الجنس اللطيف في حُسبانه.] الرّخصة التي أعطاها للرجال باتّخاذ نساء عديدات ويجلدِهنّ إذا خَرَجْن عن الطاعة[٢]، وهَجرهنّ إذا فَقدن مَفاتنهنّ[٣]، هي رُخصة مُهينة للجنس اللطيف. امْتنَع عن السماح للنساء باتخاذ أكثر من رجل ولا يريد حتى أن

---

(1) Cornelius Uythagius, *in Antichristo Mahomete*, p. 276.

(٢) [وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً. النساء (٣٤). (بايل ذكر الترجمة اللاتينية:

(Quae si forte praecepta non observarint, a vobis correctae et castigatae, in domibus lectisve detentae verberentur, usque quo vestris nutibus et praeceptis pareant. Alcor., surat. IX)]

(٣) النساء، ٣٤.

تتْرُكن أزوجا كَرِهين، إلاّ إذا وافقوا[١]. أمَرَ بأنّ المرأة المطلّقة لا يمكنها أن تتزوّج إلاّ مرّتين وإذا طلّقت من زوجها الثالث وامتنع الأوّل عن تزوّجها مجدداً يجب عليها أن تتخلّى عن الزواج كامل حياتها[٢]. بعيدا عن أن يسمح لهنّ بإظهار الصّدر أو على الأقل الرّقبة، لم يرد أن تُرى أقدامهنّ: أزواجهنّ فقط يستطيعون أن يتمتّعوا بهذا الامتياز «وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ على جُيُوبِهِنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ»[٣]. لكن صحيح أن في هذا فهو لم يفعل إلاّ أن حافظ على العادة السائدة في بلاد العرب، ذلك لأنّنا نعلم من ترتليانس (Tertullien) أن نساء ذلك البلد يغطّين وجوههنّ لدرجة أنهنّ لا يستطعن استعمال إلاّ عَينٍ واحدة «إن نساء بلاد العرب، وثنيّات كما هنّ، تصلح لكم كحاكمات: هن اللواتي لا تغطّين فقط الرأس بل أيضاً الوجه بالكامل إلى حدّ أنهنّ لا يَتركن فرجة إلاّ لعين واحدة. فهنّ يفضّلن التخلّي على نصف الضّوء بدل دعارة الوجه كله [المرأة هناك تُفضّل أن تَرى على أن

(١) البقرة، ٢٢٨.
(٢) البقرة، ٢٣٠.
(٣) النور، ٣١.

تُرَى. ولذلك فإن احدى مَلِكات روما (ميسّالينا، زوجة كلاوديوس) وصفتهنّ بأنّهن في قمّة التّعاسة لأنهنّ يَخبِبْن دون أن يُحبّبْن]»[1].

أرى أنه يخطئ[2] من يزعم أنّ محمداً أباح للرجال اتخاذ ما يحلو لهم من النساء، لأنه قد عدّل من موقفه وحدّده بحيث إننا نرى أنه أراد فقط السماح بأن يتزوّجوا إلى حدود أربع نساء، إذا أحسوا بأنّهم قادرون على احتوائهنّ بسلام. «فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع وإن خفتم ألاّ تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم». لكن لا يخطئ أبداً من يؤكّد أنه لم يحدّد لهم إطلاقاً عدد الجواري. ونحن نرى كيف أنّ الأتراك يستطيعون الحصول على العدد الذي يمكنهم المحافظة عليه. لكن، أليست مُخزية وضعية النساء الأربع، في ظلّ قانون يسمح للزوج بأن يسحب منهن حقّهنّ، وأن يحوّل نظره إلى إماء جميلات بقدر ما يستطيع اقتناءه؟ ألا يقود هذا التلاعب برأس مال الزوجيّة إلى البؤس وإلى العذاب الشديد؟ لا يُقال لي أبداً إن القانون تنبّأ بذلك، نظراً إلى أنه منح الزوجات الأربع الحق في أن يَتَمْن مرّة في الأسبوع مع الزوج «بحيث إنه إذا قضت واحدة منهنّ أسبوعا دون التمتّع بهذا الامتياز، فلها الحق في أن تطلب لنفسها بِلَيْلَة الخميس من الأسبوع المُوالي ويمكنها أن تُقاضِي زوجها في حال امتناعه»[3].

---

(1) Tertull., *de Virginibus velandis.*

[الكلمات بين معقفين غير موجودة في نصّ بيار بايل، ولكن لاكتمال الفكرة أدرجتُها هناك].

(2) Voyez Ricaut, *État de l'Empire ottoman*, liv. II, chap. XXI, et les notes de Bespier.

(3) Ricaut, *État de l'Empire ottoman*, p. 457.

ومع ذلك فإن هذا الحق لا يَمنع من أن يكون القانون قاسيا، قانونا، أقول، يُقَطِّع إربا إربا ما يكفي بالكاد لو كان كاملا، وبالإمكان خَرقه بأبخس الأثمان. هذا إرضاءٌ جميل للجِهة المُعتَدَى عليها! إن ليلةً واحدة مُفتَكّة تعويضاً لأسبوع ضائع، هو شيء قليل جدّاً، لا يَستحق عناء الوقوف أمام القُضاة وتَحمّل جهد الملاحقة المُحرجة، والمنافية للعفّة. وما المُتعة التي نجِدها في شيء من هذا القبيل حينما لا نَحصل عليه إلاّ بتنفيذ حكمٍ قضائيّ؟ فَلْنَعترف، إذن، بأن محمداً لا يُناصر الجنس اللطيف.

لم يَكتف بجعل الجنس اللطيف تعيسا في الدنيا، بل حرَمَه حتى من السعادة في الآخرة. ليس فقط لم يَقْبَله في الجنّة وإنما أراد أن تُستَعمَل تلك السعادة ليُنغِّص بها على النساء، حيث يُزعَم أنه قال إن ملذّات الجماع التي سيتمتّع بها الرجال بعد هذه الحياة ستُوفّرها لهم عذارى ذوات جمال فتّان، سبق وأن خلقهنّ الله في السماء ووهبهن لهم منذ الأزل، وأن بشأن الزيجات فهن لن يدخلن الجنة ولن يقتربن منها إلاّ بقدر المسافة اللازمة لرؤية، من خلال سرادق، ما يحدث هناك. هكذا تكون عيونهنّ ناظرة لسعادة الرجال، ويُشاهدن اللذة التي يَحصلون عليها من العذارى السماويّات. ما الشيء الأكثر إهانة للنّساء؟ أليس هذا تَفنّنا في إيلام القريب؟ [الشاعر الفيلسوف الروماني] لوكريس (Lucrèce) قال في مكان ما إنه مِن المتعة مشاهدة غرق سفينة لا نخشاه: *حينما نكون مُطِلّين على حافّة ميناء في مأمن من العاصفة، نشعر، لرؤية هول الغرق المُفزع، بحَلاوة لا أدري ما هي، لا لأنّنا نحبّ كوارث الآخرين، ولكننا نستمتع لرؤية أن هذه الكارثة بالذات حدثت بعيدا عنّا.* العكس تماماً يحصل للنساء في نظام محمد: النّظر إلى سعادةٍ قد حُرِمن

منها يُحزِنُهنّ ويُصعِّد إلى القمّة من آلامهنّ لأنه يَجعلهنّ مُدرِكاتٍ لخيرِ الآخرين وواعيات بالخير الذي حُرِمْن منه، ذلك لأن عذاب الغَيْرة لا يأتي من عدم التمتّع بقدر ما يأتي من الوعي بأن الآخرين يَتمتّعون.

لقد سمعتُ هذه القولة من العديد من الناس، وأظنّ أني قرأتها في مكان ما، أن المَلعونين سيكون لهم إدراك دقيق لنَعيم الجنّة نظراً إلى أنّ معرفة الخيرات السامية التي حُرِموا من اقتنائها ستزيد من حدّة يأسهم[١] وأن الشيطان هو الذي سيستخدم هذه الحيلة لكي يُفاقِم من تَعَاسَتِهم. إنه تَفنّن في البحث عن الوسيلة النّاجعة لتَصعيد عذابات إنسانٍ تعيس. تقول مجدّدا إذن: إن محمداً ما كان ليَقدر على تعريف قسوته بأكثر مُكرٍ من هذا. أراد أن يُشاهَدَ عن بُعدٍ ما يُثيرُ بالفعل مُحاولات يائسة وحَسرات لا تُحتَمل.

لكن لكي أقول الأشياء كما هي، يجب أن أنَوّه بأن المسلمين الحاذقين لا يقولون أبداً إنّ النساء سيتمّ إقْصَاؤهنّ من الجنّة[٢]: اعتقد، مع ذلك، أنه مسموح لي بأن أسرد ما قرأته عند العديد من الكتّاب. لن أسوق إلاّ واحدا منهم: «هم يزعمون أن تلك النسوة [حوريات الجنة] لا يَنتمين إلى الجنس البشري أو لسن مولودات من البشر، بل هن من جنس سماوي وخُلقن منذ الأزل لهذا الغرض: ذلك لأن المسلمين يقولون إن نساءهم في هذه الحياة، لن يُقبَلن داخل الجنة بل يُوضَعن خارجها ويُشاهِدن عن بعد، من وراء حجاب، المُتعة التي يحوزها أزواجهن في أحضان زوجات أخريات. هم يعتقدون أن عدد النساء هناك

(1) *Sentiments de Cléanthe*, p. 36.

(2) Voyez l'article HALI-BEIG, tom. VII, p. 479, remarque (C).

سيكون أكبر من عدد الرجال؛ وأن كل رجل سيَنال مِنهنّ عدداً مناسبا لحسناته؛ وسيتمتّعون بهنّ لا لغاية الإنجاب بل فقط من أجل التلذّذ وإرضاء شهواتهم؛ وأن قوّتهم ستكون أكبر لغرض ممارسة الجماع باستمرار، وأن النساء لهذه الغاية ستكنّ مَعفيّات من الحيض (*mundas a menstruis*)»[1].

هذا الكاتب لا يستشهد بأي شخص، وقد ساق بعض المقاطع من القرآن، والتي لا تُخبرنا بشيء آخر سوى أن نساء الجنة لديهنّ عيون برّاقة جداً، وحجمها في حجم البَيضة، وأنهنّ من الحشمة بحيث لا يُلقين ببَصرهنّ إلاّ على أزواجهنّ[2]. ليس في القرآن إذن نَعثر عمّا يسوقه هذا الكاتب بخصوص تلك النسوة [الحوريات]؛ [يُقال] إن عدد النسوة سيكون أكبر من عدد الرّجال لكي يستطيع كل واحد منهم أن يَحوز على اثنتين أو ثلاث، أو أكثر بما يتناسب مع حَسَناته؛ وهنّ مجعولات للمُتعة الجنسية وليس للإنجاب: وهُنّ دائماً على ذمّة رجالهن وتُلبّين حاجيّاتهم في كل وقت نظراً لأنهنّ غير خاضعات لتدفّق الطمث [لا يَحِضْن] كما يقول الأطبّاء؛ إنهنّ من الروعة والجمال بحيث إنه يكفي إطلالة واحدة منهن لكي تضيء الأرض كلها أثناء الليل؛ ولو تَفَلتْ إحداهن في البحر لسَحبت منه مُلوحته: «إن تلك الحوريات من الجمال والروعة، بحيث إنه لو أطلّت إحداهنّ في الليل على الأرض لأشرقت نوراً؛ أو لو بصقت إحداهن في البحر لأزالت ملوحته وتحوّل إلى عسل حلو جداً»[3].

---

(1) Hoornbeek, *Summa Controv.*, p. 175.

(٢) سورة الرحمان ٧١.

(3) Hoornbeek, *Summa controv.*, p. 175.

لقد وجدتُ جزءاً من هذه الأشياء في رسالة لكلينار (Clénard)، لكن ما يرويه ليس إلاّ رأي آحاد: هذا لا يمنحه المشروعية لنسْبَتها إلى جموع المسلمين: «اسمع، أرجوك ـ هذه عبارات كلينار ـ ما حكاه لي معلّمي بينما كنّا نقرأ مقاطع من القرآن حول الجنّة، حيث جاء فيها هكذا: «**ولهم فيها أزواج مُطهّرة**». مُطهّرة، قال، يعني أنهن لا يَحِضْن [(معفيات من الحيض «*liberas a menstruis*»)]، من أجل الجماع في كلّ وقت. ماذا؟ سألتُ: هل سيَتزوّجون في الجنّة؟ لمَ لا؟ ولكن لا لإنجاب الذّراري، أجاب. فالزوجات هناك متّخَذات للمُتعة لا للنّسل؛ وأن كل رجل له العديد من الزوجات بما يتناسب مع أعماله، وأن الله سيمنح هذا الرجل أكثر، وذاك أقلّ قوّة لتلبية عدد أزيد أو أنقص من النساء»[1].

فَلْنَقُم بنفس الملاحظة بخصوص ما أنا قائله الآن. لا يجب أن نعزوه إلى محمد، كما يفعل بيار بيلون (Pierre Belon): إنها حكايات، أو تعليقات كاذبة لبعض العلماء الحالمين أو الساخرين «بعد أن يَشرب الأتراك (المسلمون) ويأكلوا ثريدهم في هذه الجنّة، عندها يُطلّ عليهم ولدان مُحَلّون بجواهرهم وأحجارهم النفيسة، والأسورة في المعاصم والأرجل والأذنين، كل واحد منهم يحمل بيده طبقاً جميلاً فيه ليمونة كبيرة يأخذها الأتراك لكي يستنشقوها: وفجأة ما إن يُدْنِيها التركي إلى أنفه، حتى تخرج منها عذراء جميلة مزيّنة بالحليّ، تُقبّل التركي، والتركي يُقبّلها، ويبقيان خمسين سنة على تلك الحال من القُبلة، دون أن يَنهضا أو ينفصل أحدهما عن الآخر، متّخذان مَعاً كل المتعة التي

(1) Clénard, *Epist.*, lib. I, p. 42.

يستفيدها الرجل من المرأة. وبعد خمسين سنة، يقول لهم الله، يا عبادي، بما أنكم استمتعتم في جنّتي، أريد أن أُرِيَكم وجهي. فينزع الحجاب من على وجهه. لكن الأتراك يقعون على الأرض من شدة النور الذي يصدر منه، حينها يقول لهم الله: قوموا يا عبادي، وتمتّعوا بِنعمَتي؛ لن تموتوا بعدها أبداً، ولن تحزنوا وتشقوا. ويرفع رؤوسهم، يرون الله وجهاً لوجه، وإثر ذلك كل واحد يأخذ حوريته، يدخل بها إلى قصره في الجنة، أين يجد المأكل والمشرب: يستمتع بشدة، ويتلذذ مع جاريته، ويقضي وقته سعيداً دون أن يخشى الموت. هذا ما حكاه محمد عن جنّته، مع أشياء جنونية عديدة، والتي يبدو لنا أن الباب العالي للأتراك مُستَوحى ممّا قاله محمد عن الولدان والحور العين في الجنة. فهو يقول إن العذارى الطاهرات خَلقهنّ الله هكذا في الجنة، وهنّ محروسات وقاصرات وراء الأسوار. ويقول محمد لو أن واحدة منهنّ خرجت من وراء سور الجنّة في ظلمة دامسة، لأنارت العالم كلّه، مثلما تفعل الشمس، ولو بصقت إحداهنّ في البحر، لتحوّل ماؤه حلوا مثل العسل»[1].

(R) خاف... الفارسيات.] هناك كاتب حديث[2]، دون أن يذكر أحداً، يعلمني بأن هذا الغاوي أقرّ أن الرهبة وحدها من نساء بلاد فارس، كانت السبب في أنه لم يَتنقّل أبداً إلى ذلك البلد، نظراً إلى أنهن فاتنات للغاية، إلى درجة أن الملائكة ذاتها، يمكن أن تقع في

(1) Pierre Belon, *Observations de plusieurs Singularités*, liv. III, chap. IX, p. 392.

(2) La Mothe-le-Vayer, *Lettre CXIV*, tom. XII, p. 11, 12.

حبّهن والخنوع لهنّ. ويبدو أنه كان يخشى أن يُقوّمْن قَلَمَهُ، ووحيه المزغوم، ويجعلنَه يسنّ قوانين مُخنّثة جداً، قد تُعَاب عليه كثيراً[١]؛ ذلك لأنه كان يعلم أنّ أفعاله الشّنيعة جالبة للفضيحة[٢].

(S) تُحكى أشياء متفرّدة جدّا عن قوّته الجنسيّة إزاء النساء.] ليس هناك إجماع بين الكتّاب على عدد نسائه؛ لكنهم يتفقون عموماً على أنه كانت لديه عدّة نساء في نفس الوقت، وأنه يمارس معهن الجنس بقوّة عارمة[٣]. «يمكننا أن نرى عند أبي الفرج أنه (عليّ) كانت لديه، حسب البعض، حتى سبعة عشر امرأة، دون الجواري التي تسرّى بها... ليس هناك من عناء كبير في اعتقاده قدّيس على طريقتهم[٤]، حينما نعلم أنه لم يتزوّج إلاّ أربعة عشر امرأة، وأن هذا الاخلاص الكبير لم يكن تقريباً إلاّ بثلاث درجات تحت محمد الذي كانت له سبعة عشر امرأة، دون إدراج الجواري، اللواتي هُنّ سعيدات للغاية لمُساهمتهنّ في تَسْلِيَة نبيّهم

---

(١) بمعنى، قوانين في صالح النساء، كما يقال بخصوص بعض القوانين التي شرّعها جوستينيان وكان لزوجته فضل كبير فيها.

(2) On trouve ces paroles dans Brantôme, *Dames galantes*, tome I, p. 304. Les Mores, par un ancien et commun proverbe, disent que leur prophète Mahomet ne voulut jamais aller à Schiras, de crainte que s'il y eût vu une fois ces belles femmes, jamais après sa mort son âme ne fut entrée en paradis.

نجد هذه الكلمات عند برانتوم، النسوة الغانيات، ج. ١، ص، ٣٠٤. (Brantôme, *Dames galantes*, tome I, p. 304). العرب، عن طريق مثل قديم وعام، يقولون إن نبيّهم محمد لم يرد أبداً الذهاب إلى مدينة شيراز، خوفا من أنه لو رأى مرّة نساءها الجميلات، لما دخلت روحه بعد الموت الجنّة.

(3) Chevreau, *Histoire du Monde*, liv. V, p. 14.

(٤) يعني عليّ.

العظيم. صحيح أن عليًا كان أقلّ تَوَقّدا من حماه، الذي يتباهى بقيامه بواجباته الزوجية على أحسن وجه كل لَيلة، وبأنه حاصل، عن طريق امتياز خاص، على قوّة أربعين رجل في هذا اللقاء»[1].

فلننظر إلى ملاحظة السيد بِيسْبيير (Bespier) على ما قاله السيّد ريكو (Ricaut)[2] أن محمداً كانت له تسع نساء وعليّ أربعة عشر. جون اندري (Jean André)، في نفس الصّفحة، في بداية الفصل السابع من كتاب «نقض طائفة محمد»، يقول إن محمداً كانت لديه تسع نساء في نفس الوقت، دون الإماء؛ وفي نفس الموضع يقول إنه كانت لديه احدى عشر امرأة، ويبرهن عليه من خلال كتاب عنوانه «الشمائل» وهو كتاب يصف العادات الحسنة لمحمد[3]. إن الكلمات التي استشهد بها جون أندريه من هذا الكتاب تُفيد بأن محمداً له من القوّة بحيث إنه في ساعة واحدة كان قادرا على أن يطوف على زوجاته الاحدى عشرة «كان صلى الله عليه وسلّم يدور على نسائه في الساعة الواحدة من الليل والنهار، وهنّ احدى عشرة».

بوديه (Baudier)[4] يقول إن محمداً كانت لديه خمسة عشر امرأة، دون الإماء. جرجس المكين لا يتكلّم إلاّ عن ثلاث زوجات لمحمد، لكنه نسي الأولى التي ماتت قبل أن يتزوّج الثلاث الأخريات. «أظنّ أنه لا شيء مضمون (بيسبيير الذي يتكلّم) بخصوص عدد زِيجَات محمد،

---

(1) Là-même, p. 19.

(2) Ricaut, *État présent de l'Empire ottoman*, tom. II, p. 456.

(3) Bespier, *Remarques curieuses*, tom. II, p. 631.

(4) *De la Religion des Turcs*, liv. I, chap. II, cité par Bespier, *là-même*, p. 682.

وأقلّ مِنه عليّ، الذي إلى حدّ الآن، لم أقرأ قطّ أنه تزوّج نسوة أخرى عدى ابنة محمد المُسمّاة فاطمة»[١]. السيّد بفايْفِر يذكر أن هذا النبي الكذاب وصل عدد نسائه إلى سبعة عشر امرأة، حسب البعض، وإلى واحد وعشرين، حسب البعض الآخر[٢].

هذا الأمر في حد ذاته غير مستغرب، لكن ما يدعو للدهشة، هو ما يذكره بيلون (Belon)، والذي كنت قد تحدّثت عنه سابقاً: «لقد جاء في كتاب عربيّ ـ يقول بيلوْن ـ بعنوان شمائل محمد، يُمجّد فضائله وقواه الجسدية، يتباهى بأنه يطأ نساءه الاحدى عشر في نفس الساعة، الواحدة تلو الأخرى»[٣]. الكثير منكم يتذكّر هنا الأخ فريدون لرابيليه (frère Fredon de Rabelais)[٤]. لا أدري ما يجب أن نعتقد في ما يُروَى عن أن محمداً كانت له علاقة مع أتانٍ [أنثى حمار] «مُشَرِّع الأتراك [المسلمين] محمد، بسبب شهوة مُفرطة، جامع أتان كان يركبها»[٥].

---

(1) Bespier, *là-même.*

(2) Pfeiffer, in *Theologiae Mohammedica principiis sublestis,* dans la *Bibliothèque universelle,* tom. VII, p. 257.

(3) Belon, *Observations de plusieurs Singularités,* liv. III, chap. X, p. 404, et non pas chap. IX, comme le cite la Mothe-le-Vayer, *lettre XC,* p. 272 *du tome XI.*

(4) Par ledit serment qu'avait fait, quantes fois de bon compte ordinairement le faites-vous par jour? F., six. Pan. Et de nuit? Fr., dix. Cancre, dit frère Jean, le paillard ne daignerait passer seize, il est honteux. Rabelais, liv. V, chap. XXVIII.

(5) Balthasar Bonifacius, *Historia ludicra, lib. II, cap. VII,* p. 39. Il cite Bonfinius decis (apparemment il voulait dire *decad.*) I, lib. 8.

(T) لم يجرؤ على أن يكون الوحيد الذي يحوز على امتياز تعدد الزوجات، رغم أن بالنسبة لزواج المحارم.... أفرد به نفسه عن طريق امتياز خاص.] لكي يُلوِّن هيَجانه الجنسي الذي دفعه إلى الزواج بنساء عديدات، ادّعى أن الله هو الذي أوحى إليه بجواز ذلك. كان من الواجب إذن أن يُدمِج هذا البند في قرآنه. ولكن بما أنه افتتن بجارياته، ونام معهنّ، كان في حاجة إلى وحي جديد لتبرير الزّنا؛ كان مضطرا إذن إلى أن يَبْتَدِعَ عَن قصدٍ تشريعا يخصّ تسرّي الأزواج. لم تكن لديه بعد إلا زوجتين، حينما افتتَن بمارينا (Marina) جاريته، مخلوقة جميلة جداً، نام معها دون أن ينتظر سنّ البلوغ. زوجاته اكتشفنه مُتلبّسا بالجرم، فاغتظن. أقسَم لهنّ أنه لن يعود إلى فِعْلَته تلك إن صَمَتْن؛ ولكن بما أنه خرق هذا القسم، انتفضن ضدّه وغَادَرْنَه. لكي يتدارك الموقف ويعالج هذه الفضيحة، اختلق صوتا من السماء يُنبِؤه بأنه مسموح له بأن يتمتّع بجواريه.

هذه هي الكيفيّة التي بدأ بها هذا الكذاب (*cet imposteur*) باقتراف الجرم، ثم انتهى بتحويله إلى قانون عامّ. إن المَحكّ الأفضل لمعرفة هل أن أولئك الذين يتباهون بالإلهام [الإلهي] - إما لاستحداث نبوّات جديدة، أو لتفسير القديمة منها، الأبوكاليبس مثلا (l'Apocalypse) - يَنطقون عن حسن نيّة هو التثبّت من تعاليمهم هل تُغيّر من مسارها بحسب تغيّر الأزمان، وهل أن مصلحتهم الخاصة لم تَعد كما كانت من قبل[1]: «يجب *الاشارة بالمثل* (استعمِلُ هنا سلطة اللاهوتي الكبير [هورنباك]) *إلى أن القوانين التي تُبرّر اجرامه، كانت دائماً مُختَلَقة من*

(1) Voyer la remarque (NN)

طرفه بعد اقتراف الفعل، لا قبله؛ وبالتالي، من الواضح جداً، أنها أعذار لجرائمه أو دفاع عنها بعد اقتراف الجرم الفظيع(١)*... هذا ما يروونه عن محمد حينما اكتُشف مع فتاة جميلة ولكنها قاصرة، مارينا، في حالة زنى، فأقسم لزوجتيْه عائشة وخديجة أنه لن يقربها على شرط أن يحفظا السرّ؛ لكنه لم يلتزم بقسمه، فهَجَرتاه وعادتا إلى بيت أبويهما. ولكي يُخمد هذا التّململ، اختلق مجدداً وكالعادة، هذه الاجابة الالهية التي جاءت في سورة التوبة والتي تُعطي الحق للأزواج أن يقترنوا بإمائهم [عبداتهم] (وفعلا مارينا كانت عبدة محمد) متى وكيف شاؤوا، وكل هذا رغم احتجاجات النساء وغيْرتهنّ. ولكن قبل أن يصدر هذا التشريع، كان قد اقترف جرما، ووعد بأن لا يعود إليه. إذن: حانث وزانٍ ومُغتصب (perjurus adulterius et stuprator)»*(٢).

بنوع من الوقاحة التي لا يسعنا إلاّ أن نندهش منها، افترَضَ أن الله حرّم نكاح المحارم على الآخرين، ولكن أجازه له برخصة خاصة: «*لقد حرّم على الآخرين تحريما صارما أي زواج للمحارم*: «ولا تَنكِحُوا ما نَكَح آباؤكم من النساء إلاّ ما قد سَلف إنه كان فاحشة ومَقْتاً وساء سبيلاً. حُرّمت عليكم أمّهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعمّاتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت... (سورة النساء)» إلخ.

---

(1) Hoornbeek, *Summa Controvers.*, p. 117.

(2) L'auteur nous renvoie à Jean André, *Confus. Muham.*, c. ñ ; à Philippo Guadagnol., *Contra Ahmedam Persam*, c. 5, sect. 3, et c. 10, sect. 2 et 3, et à Vincent de Lerins. *Specul. Histor.*, I. 24. Il fallait dire Vincent de Beauvais.

لكنه هو، انغمس في التمتّع بكل واحدة، كما لو كانت [هذه الرخصة] بسلطة إلهية؛ في فصل الكفار أو الأحزاب يقول: «يا أيها النبيّ - يقول له الله - إنّا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهنّ وما ملكت يمينك ممّا أفاء الله عليك وبنات عمّك وبنات عمّاتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبيّ إن أراد النبيّ أن يَستنكحها (*quae se tibi prophetae prostituere voluerit*) خالصة لك من دون المؤمنين». *بالتأكيد نبيّ جدير بهذا الامتياز! ويعدها يواصل:* «تُرجى من تشاء منهنّ وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممّن عزلتَ فلا جُناح عليك ذلك أدنى أن تقرّ أعينهنّ ولا يَحزَنّ ويَرضيْن بما آتيتهنّ كلّهنّ». *إنسان ماجن* (*Propudium hominis!*)! *الاباحة للنفس بتلبية شهوة خليعة غاية في العار*»[1].

لم يجرؤ دائماً على توسيع صُلوحيّاته لأنه نُهِيَ عن أن يستحوذ في المستقبل على زوجة قريبه. اكتفى بأن يُعلم الناس أن الله يَعفو عمّا سَلف على شرط أن لا يعاد السقوط في الخطأ. لكي نفهم جيداً هذا الأمر، يجب أن نعلم أن محمداً، وهو زوج تسعة نساء، تزوّج عاشرة افتكّها من خادمه. حدث تذمّر، الخادم صرخ ضدّ هذه الإهانة، النبيّ الكذاب، لكي يُخمِد الفضيحة، تظاهرَ بأنه يرغب في ردّ ما استحوذ عليه، لكن بما أن ذلك لم يكن غرضه، وجد في الحين الوسيلة لإعفاء نفسه. تظاهر بأن الله عاتبه على اتخاذه هذا القرار، وأمره بأن يحتفظ بزوجته العاشرة، دون الاكتراث بالفضيحة الإنسانية على حساب المصادقة السماوية. «اغتصب تلك المرأة (زوجة خادمه زيد)، ثم بعد ذلك

(1) Hoornbeek, *Summa Controv.*, p. 116.

اتّخذها كزوجة، متظاهرا بأنه أمرٌ إلهي، على الرغم من أنه كان مُحاطا بتسع زوجات. لهذا السبب، وقصْدَ إرضاء الآخرين، الذين استهجنوا هذه الفعلة، وكذلك خادمه زيد، أدخل الله في القرآن، الفصل المذكور، موبّخا إيّاه على اعتزامه إرجاع زيدٍ زوجته، بسبب الفضيحة التي انتشرت بين الناس». *«وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمتَ عليه امْسك عليك زوجك واتّق الله وتُخفي في نفسك ما الله مُبديه وتَخشى الناس والله أحق أن تخشاه، فلما قضى زيدٌ منها وطرا زوّجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرجٌ في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهنّ وطراً وكان أمر الله مفعولاً* (الأحزاب)»[١].

وقد تفطّن جيّداً إلى أن هذا الفعل سوف يبث الذّعر في قلوب كل الأزواج، ولذلك كانت له البراعة لكي يُطمئن الرجال: وقد أفشى أنه في المستقبل، بأمر من الله، سيترك للرجال أزواجهم، حتى وإن وقع في حبّهن[٢].

(V) رجل... رُدِم بالحجر في بئر جافّة.] سنرى هذه المغامرة في نهاية انقلابات قَصصية سيتمّ سردها، وتتضمّن أشياء عديدة تخص نبيّنا الكذاب *(touchant notre faux prophète)*»[٣]عارفا بأنه كان عرضة للسقوط في الصرع، قرّر بأن يُقنِع أصدقاءه أن أعنف وأشدّ لحظات صرعه كانت انجذابات وعلامات من روح الله الذي يتنزّل عليه لكي

---

(1) Idem, p. 117.

(٢) «لا يحلّ لك النساء من بعد ولا أن تُبدّل بهنّ من أزواجٍ ولو أعجبك حُسنهنّ إلاّ ما ملكت يمينك (الأحزاب ٥١)»

(3) Naudé, *Coups d'État*, chap. III, p. 322.

يحلّ فيه؛ وقد أقنعهم أيضاً أن الحمامة البيضاء، التي كانت تحطّ وتأكل حبّات القمح من أذنه، هي الملك جبريل الذي يأتيه من قبل الله نفسه لكي يُعلّمه ماذا عليه أن يفعل. بعد ذلك، استعمل الراهب سرجيوس لكي يؤلف القرآن الذي تظاهر بأنه أُمْلِيَ عليه من فم الله نفسه. أخيراً جلب إليه فلكيّاً شهيراً لكي يُهيِّئ الناس ـ عن طريق التنبؤ بالتغيّرات التي ستحصل، وبالشريعة الجديدة التي سيُقيمها نبيّ عظيم ـ لتقبّل بسهولة نُبوّته حينما يُعلِنها. لكنه تفطّن إلى أن كاتبه، عبد الله بن سلول، الذي تخاصم معه، بدأ يَكشفُ ويَنشرُ تلك الأكاذيب، فذَبَحَه في الليل في بيته، وأضرم النار في الأركان الأربعة، بغاية إقناع العامة في اليوم الموالي أن ذلك حصل بنار نزلت من السماء لمُعاقبة ذلك الكاتب الذي تجرّأ على تغيير وتحوير بعض المقاطع من القرآن. إلاّ أنه ليس إلى هذه الرقّة يجب أن تصل الأعمال الأخرى: كان من الضروري أن يُنجز عملاً آخر يكمّل به السرّ؛ وقد تم ذلك بإقناع واحد من أتباعه المخلصين النزول في بئر قريب من طريق عامّ، لكي يَصيح حينما يمرّ بصحبة جمع غفير من الناس المرافقين له: *محمد هو حبيب الله؛ محمد حبيب الله*، وقد حصل هذا طبقا للمخطط الذي دبّره، فشكَر العناية الإلهية على هذه الشهادة البارزة، والتَمَس من مُرافقيه رَدْمَ ذلك البئر وتَشْييد مسجد صغير فوقه علامة على تلك المعجزة. وبهذه الصّنعة فإن الخادم المسكين تمّ سحقه، ورُدِم تحت وابل من الأحجار التي حَرَمته من الوسيلة للكشف عن خدعة هذه المعجزة؛..[1].».

(١) حكاية هذا الرجل، المردوم في بئر، توجد في كتاب آخر لنُوديه (Naudé)، أعني=

«لكن الأرض والأقلام الفصيحة تلقّت الصوت (Excepit sed terra sonum, calamique loquaces) «Petron., in Epigr

لقد نسي رواة هذه القصة أن يُعلمُونا: كيف عَرف الناس لاحقاً أن محمداً أغرى هذا الرجل بأداء شهادة كاذبة؟ هلاّ كان لديهم الحذق لافتراض أن هذا المسكين قد كشف مسبقا كل السر إلى زوجته، التي لم تتوان عن إفشائه إلى جيرانها، وإلى المارّة، حينما تلقّت خبر النهاية المأساوية لزوجها؟ الكلمات اللاتينية التي استشهد بها نوديه (Naudé) هي ليست إلاّ استنساخاً حاذقاً لِلَقْطَة من أسطورة ميداس (Midas)؛ لكنها لا تُوضِّح شيئاً، وإنما تُلمّح بأنه لم يُتفطّن أبداً إلى إيجاد حلّ لعقدة الرواية، أو إلى سبب لاكتشاف وعاء الورود. أما بخصوص الحمامة التي يتحدث عنها نوديه، يجب أن أقول إن بوكوك (Pocock) حينما اطّلع على هذه الحكاية في الفصل الرابع من كتاب غروسيوس: *في حقيقة الديانة المسيحية*[1]، ترجّى غروسيوس بأن يَدلّه على المرجع الذي استقى منه هذا الخبر والذي لا يوجد عند أي كاتب عربي. أُجيبَ بأنه لم يجد له من سند إلاّ عند الكتّاب المسيحيين. «غروسيوس لم يتَحرّ أبداً من الحكاية التي يردّدها دائماً، أي تلك الحمامة التي تحطّ على أذن محمد، وهذه لم نجدها مذكورة عند حُذاق القوم الذين رجعنا إليهم، والتي لا يَرويها المسلمون، ولكن بالاعتماد على الثقة في كُتّابنا،

=في كتاب: الدفاع عن رجال عظماء متهمون بالسّحر، ص، ٢٢٣ ـ ٢٣٣.
(*Apologie des grands Hommes accusés de Magies*).

(١) ص، ٢٠٢.

يقول اسكاليغار (Scaliger)، الذي ذكرها في رسالته إلى مانيليوم»[١]. انظروا الملاحظة (DD).

(X) قيل... إنه كان كاردينالا.] «بَنْفِنُوتو دا إيمولا (Benvenuto da Imola) يقولها صراحة في تعليقاته على دانتي»[٢]. وهذا ليس أقلّ سخافة مما قاله صاحب الحواشي على القانون الكنسي (Droit canonique): إن محمداً كان رئيس النيقولائيين. «إن واضع الحواشي على القانون الكنسي قال إن محمداً كان نيقولاوياً، ملاحظة سخيفة مماثلة كتبها بنفنوتو دا إيمولا أعني أن محمداً كان كاردينالا ينتمي إلى مجمع الكنيسة الرومانية المقدّسة»[٣].

(Y) هناك... بعضُ الدّكاترة اللاهوتيين الذين اعتبروه المسيح الدجال.] انظروا إلى الرسالة بعنوان: *محمد المسيح الدجال، حيث ليس فقط عن طريق الكتاب المقدس بل عن طريق شاهدة المصلحين وأيضاً كل ضروب وأجناس الأدلة التامة الدافقة القاهرة والمتينة يُبَرهَن على أن محمداً هو الوحيد الذي ذكرته الكتب المقدسة على أنه المسيح الدجال*. وقد طُبع[٤] سنة ١٦٦٦. كورناي أوثالجيوس (Corneille Uythalgius) دكتور في اللاهوت، هو المؤلف، والذي يُبدي كثيراً من

---

(1) Eduard. Pocockius, *Not., in Specim. Histor. Arabum*, p. 186, 187.

(2) Naudé, *Dialogue de Mascurat*, p. 45.

(3) Thomas Iltigius, *de Haeresiarchis aevi Apostolici*, apud *Acta Eruditor. Lips.*, ann. 1690, p. 307, 308.

(٤) في امستردام عند يوهانس رافستاينوس (*À Amsterdam, apud Joannem Ravesteynius*)

التشدّد ضد البابوّية، يؤكد في تصديره أنه لم يفعل أكثر من تطوير وتثبيت مشاعر بعض المصلحين البروتستانت «الآن، وفي أي وقت مضى، هناك الكثير ممّن اعتبروا محمداً المسيح الدّجال، وبابل، المدينة العظيمة التي وصفها لنا الوحي (الرؤيا، ١٧)، فهموها على أنها القسطنطينية، روما الجديدة: من بينهم، اللاهوتي القديم أريثاس (Arethas) أسقف قيصرية في كابادوكيا؛ أنجلوس اليوناني الذي عاش في القسطنطينية؛ تشيليوس سيكوندوس كوريو، فينشيزلاوس بودوفاز مستشار الإمبراطور، والذي عاش في بعض الأحيان في القسطنطينية؛ بوسكياروس؛ ومن بين مصلحينا ميلانكتون العظيم، بوسر، موسكلوس، زانكيوس؛ ولاهوتيّين آخرين سواء قدماء أو محدثين». السيّد دي مو (de Meaux) يذكر كُتّابا آخرين لهم نفس الاقتناع. هذه كلماته: «إذا كان كلّ شيء يجب أن يُحال على نهاية العالم، وعلى زمن المسيح الدجال، ألا يُسمح إلى عدد من علماء القرن الماضي - إلى جون آنيوس من فيتارب، إلى جون هانتينيوس من مالييناس، إلى دَكَاتِرَتنا جوس كليتو، جينيبرار، وفوأردون الذي يمدح ويسير على هدي هؤلاء الكتاب الحذاق - بالتعرّف على الدابّة والمسيح الدجال في محمد، وشيء آخر شهد به إنوخ وإيليا على القديس يوحنا؟»[١].

(Z) **لا يمكنني أن أصدّق أنّ جُثته أكلتها الكلاب.]** كاميراريوس (Camérarius) أدمجَ هذه الحكاية في الفصل الأول من الكتاب الثالث من المجلّد الأول من كتابه: *تأملات تاريخية*[٢]. يَقتبِس من المؤلف

---

(1) M. de Meaux, *Préface sur l'Apocalypse*, num. 13, p. 32, 33.

(٢) ص، ٢٠٤، ٢٠٥: أستعملت ترجمة سيمون غولار (Simon Goulard)

كالتالي. محمد: «تنبّأ لأتباعه بأنه سيَرحل عن العالم في السنة العاشرة من حكمه، ولكنه سيُبعث في اليوم الثالث. وعلى هذا فإن واحدا من أصحابه، أراد أن يتحقق من صدقه، سمّم له شراباً: بعد أن ابتلعه، أحس بأنه مُشْرِفٌ على النهاية، قال لمن حوله: بالماء سوف تستلمون مغفرة الخطايا، ثم فجأة مات. صحابته أبْقَوا على الجسم، في انتظار تحقق نبوءته، لكن جسده فاحت منه رائحة كريهة جداً، إلى درجة أنهم لم يستطيعوا تحمل هذه القذارة، تراجعوا وتركوه، ثم عادوا بعد عشرة أيام لكي يجدوا أنه قد أكلته الكلاب. أردتُ حقاً أن أنقل هذه الحكاية من كرونولوجيا إسبانيا التي صنّفها جون فاسيوس (Vaséus)، والذي يقول إنه اتّبع مؤلِّفاً اسمه لوكاس دي توده (L. de Tude): لأنني لا أتذكر أنني قد قرأتها في مكان آخر».

لقد فحصتُ ووجدتُ أن فازيوس يروي هذا الخبر تحت سنة ٦٢٨، وأنه يستشهد بلوكاس تودانسيس (L. Tudensis) ببعض التصرّف، كما يقول. وقد أدمج بارونيوس (Baronius) في حولياته[1] شذرة من أبولوجيا أولوجيوس (*l'apologie d'Eulogius*)، كاتب من القرن الثامن. نجدُ فعلاً قصصا وجيزة في هذه الشذرة، ومن بينها الحكاية التي كنتُ قد ذكرتُها. لكنه قد أردفها هناك بظرف جدير بأن يُعرَف. ألا وهو أن محمداً كان قد أكّد لأتباعه أن الملك جبريل سيأتي ليبعثه في اليوم الثالث. فمكثوا ينتظرون كل ذلك الوقت حول الجثة، وبعد ذلك انسحبوا، معتقدين أن حضورهم يخيف الملائكة، لكن لا أحد قام بحراسة الجسد، فجاءت الكلاب وأكلته: لم تترك منه إلاّ القليل الذي تمّ دفنه من طرف أتباع

(١) تحت سنة ٦٣٠، عدد ٩ وما بعده.

الكذاب. وقد صَمّموا على الانتقام من هذه الإهانة بقتل، كلّ سنة، عدد كبير من الكلاب. بارونيوس يُحيلنا على العديد من المؤلفات التي كُتبت عن حياة محمد، ويعترف بأنه امتنع عن استخدامها، لأنه ببساطة وجد فيها كثيراً من الأكاذيب[1].

هناك لاهوتي بروتستانتي آخر[2]، كنتُ قد ذكرتُه مرّتين أو ثلاث، يروي هذه الحكاية، دون الاعتقاد فيها، يذكر لنا مختلف المؤلفين الذين نقلوها. انتبهوا جيداً إلى استشهاداته: «*جُثته مَكثت بضعة أيام دون دفن، لأنه قال إن في اليوم الثالث سيُبعَث، لكن بعد ذلك تمّ نهشها من طرف الكلاب، هكذا كَتَبا أولوجيوس وفينسانتيوس*[3][*2]. *ولكن بما أن محمداً نادراً ما يَتباهى بالمعجزات، وقد أعلن أن طائفته سَتنْتَشر بقُوّة السلاح، وليس بالآيات والخوارق، فإننا نُفضّل أن نترك هذه القصة مع مؤلفيها*».

الأب مَرّاتشي (Marracci) لم يكن بهذا القدر من الرّيبيّة: فهو لا يدحض قط أولئك الذين قالوا إن صحابة محمد لم يكترثوا بجثته لأنهم كانوا يتنازعون الحكم، فنهشتها الكلاب. وقد اعتمد على روايات تقص أن قبر هذا النبي الكذاب لا يحوي إلاّ قطعة صغيرة من جثته. «*لا توجد فيه إلاّ قطعة صغيرة من جسده - يروي كاتبنا - وهذا لا يبدو مجانبا للحقيقة، نظراً إلى أن كُتّابا حاذقين يروون أن بعد موت محمد، تنازع*

(١) نفسه، عدد ١٢.

(2) Samuel Schultetus, *in* eccles. Mahumed., p. 17.

(٣) (*٢) هوتنغر، تاريخ الشرق، II، فصل ٤، ص، ٢٧٣.

أصحابه عن تَرِكَة حكمه، ولم يَعتنوا أبداً بجُثّته، وفي خِضمّ هذه المناوشة، مزّقتها الكلاب»[1].

(AA)... نُشرت وصيّة لمحمد.] طُبعت بباريس، باللاتينية والعربية، عام ١٦٣٠ تحت عنوان: وصيّة أو حلف محمد مع المسيحيين. الأب باسيفيك سكاليغر، راهب كابوتشي، جلب المخطوط من الشرق. جبرائيل الصهيوني (Gabriel Sionita) هو مَن قام بترجمتها إلى اللاتينيّة. جون فابريس نَشر هذه الوصيّة باللاتينية في روستوك سنة ١٦٣٨. السيد هينكلمان، قسّيس من هامبورغ، نشرها باللاتينية والعربية[2] سنة ١٦٩٠. وقد اختلفت آراء الناقدين حول مدى صحّة هذه الوثيقة. غروسيوس يعتبرها مَنحولة: «*جبريل الصهيوني*، ـ يقول[3] ـ *نُشرت في أيّامنا هذه وصيّة لمحمد النبيّ الكذاب (του ψευδοπρφητου)، أو بالأحرى تسامحا من طرفه إزاء المسيحيين، صِيغَت، دون شكّ، من المسيحيين للحصول على معاملة أفضل من طرف المسلمين، تحت مظلّة اسم عظيم. لكنه يؤكد أنها أصليّة ويَفرِض هذا الرأي على غير العارفين*». فويسيوس[4]، هورنباك[5]، بيسْبيار[6]، والعديد من القسّيسين البروتستانت يتبنّون هذا الرأي.

---

(1) Ludov. Maraccius, *in* Prodromo ad Refutat. Alcorani, *apud* Acta Eruditor. Lips., 1692, p. 331.

(2) *Voyez l'*Histoire des Ouvrages des Savants, octobre 1690, p. 80.

(3) Grotius, *Epist., ad Gallos*, p. 239, *apud* Hotting., Hist. orient., *lib. II, cap. II*, p. 237.

(4) Voetius, *Disp. Theolog.*, tom. II, p. 668.

(5) Hoornbeek, *Summa Controv.*, p. 88.

(6) Bespier, *Remarques sur Ricaut*, tom. II, p. 623.

هوتنغر الذي لم يَر قطّ النسخة العربية، لم يجرؤ على اتّخاذ قرار نهائي: «*اطّلعتُ مؤخّرا على وصيّة محمد. ولا أشك في حقيقتها. ولكن كنتُ أتمنّى لو أن المترجم لم يُعطها ذاك الاسم: لأن لا شيء يقرّبها من أن تكون وصيّة، إنها تحالفٌ وعهدٌ، والتي من خلالها أمّن المسيحيين؛ ويبدو أن جرجس المَكين قد ذكرها في حياة محمد، أين يستشهد بالتواريخ المسيحية وهو أن هذا الكذاب (illum impostorem) آثر المسيحيين وأنه لما جاءه بعض المسيحيين طالبين منه الأمان، فرَضَ عليهم الجزية، وأبرم معهم عهدا*»[1]. السيّد هينكلمان[2] هو من رأي سلمازيوس، السيّد ريكو أيضا؛ راغبا في البرهنة على أن محمداً استعمل المُكر في البداية مُبدِياً نيّة مزيّفة في العيش بسلام مع المسيحيين - يقول[3] - إن هذا النبي الكذاب أبرم معهم معاهدة، والنسخة الأصلية وُجدت في دير رهبان جبل الكرمل. وأضاف هذه الكلمات: «*يقال إن هذه النسخة الأصلية تمّ جَلبها من ذاك المكان إلى فرنسا وأودِعَت بمَكتَبة الملك. وبما أنها عتيقة وغريبة، اعتقدتُ أنه ليس خروجا عن الموضوع أن أقوم هنا بتأويلها*»[4]. بعد أن عرَض فحوى الوثيقة، يواصل قائلاً: «*رغم أن الأتراك يُنكرون هذه المعاهدة، إلاّ أن هناك العديد من الكتّاب الحاذقين يعترفون بها، ويرون أنها بالفعل وضعت في الزمن الذي ذُكر في الأسفل، يعني حينما كانت سلطة محمد ضعيفة*

(1) Salmas., *Epist. XX*, lib. I, p. 44.

(2) Voyez l'Histoire des Ouvrages des Savants, *octobre* 1690, p. 80.

(3) Ricaut, *État de l'Empire ottoman*, liv. II, chap. II, p. 307.

(٤) نفسه، ص، ٣٠٨.

وفي إرهاصاتها الأولى؛ لأنه في ذلك الوقت كان يحارب العرب ويخشى أن يتكتّل المسيحيون ضدّه. ولذلك، لكي لا يتعرّض لهجوم من عدوّين في نفس الوقت، أبرم هذه المعاهدة في دير رهبان جبل الكرمل، ومنها استمدّ هؤلاء الرهبان الكرماء اسمهم»[١].

الأمر المؤكد جداً هو أن في الفترة[٢] التي يُفترض فيها أن محمداً قد أبرم تلك المعاهدة مع المسيحيين، كان من الكياسة السياسية عدم استثارتهم. ثمة مقطع من القرآن يسمح للكافرين بحرية الضمير. السيد ريكو يستشهد به[٣]. كان بإمكانه أن يستشهد بمقطع من جرجس المكين الذي يُعلمنا بأن محمداً عامل معاملة إنسانية جداً رهطاً من المسيحيين طلبوا منه ممرّاً آمناً[٤]. وقد أعطى أوامره لضمان حمايتهم. السيد ريكو هو إذن مُحقّ في القول بأن محمداً في البداية ماح للسلم مع المسيحيين، لكنه غير مُحقّ في ذكر الأسباب التي يزعم أنه من أجلها برزوا كمصدر خوف لهذا النبي الكذاب: **«المسيحيون ـ يقول ـ جديرون بالثناء لحماستهم، لصدقهم ولممارستهم كل أنواع الفضيلة؛ كل هذا**

---

(١) بيسبيار أدلى هنا بهذه الملاحظة: «ليس هناك أي مصداقية لذلك، وهذه المعاهدة موقّعة في المدينة، كما نراه هنا. لا يمكن أن يكون قد أبرم في دير جبل الكرمل، الذي يبعد أكثر من مائتي فرسخ من المدينة».

(٢) السنة الرابعة للهجرة.

(3) État de l'Empire ottoman, *liv. II, chap. II*, p. 307. *Voyez* les Pensée sur les Comètes, num. 244.

(4) Securitatem petituri ... securitati instrumentum scripsit (وطلبوا منه الأمان...) .وكتب لهم بالأمان) *Je me sers d'une version libre*. Voyez Hottinger, Histor. Orient, p. 236, *citant* Elmacin, Hist. Sarac., p. 11.

مَصحوب بنقاوة تعاليمهم، وباتّحادٍ مقدّس وراسخ في الإيمان الصحيح؛ وبما أن الأباطرة كانوا مسيحيين في تلك الفترة، فإن المسيحية لم تكن صامدة فقط، بصبرها، بمُعاناتها، وبأملها، كما فعلت طوال القرون الأولى، بل كانت أيضاً مدعومة بالسلاح وبحماية الأباطرة»[1]. لكن هذا مخالف لآراء العالم أجمع. فعلا، الكل مُتّفق على أن تشتّت المسيحيين، رذائلهم، ومساوئ البلاط الإمبراطوري، هي العوامل التي سهّلت تقدّم الإسلام[2].

لا يُمكنني أن أمرّ إلى شيء آخر دون أن أقوم باعتبار حول النقطة الآتية: إن المسلمين حسب مبادئ دينهم، مجبرون على استعمال العنف لتحطيم الأديان الأخرى، ومع ذلك فإنهم مُتسامحون معهم منذ قرون عديدة. المسيحيون لم يُؤمَروا إلاّ بالوعظ والتعليم، ومع ذلك فإنه من غابر الأزمان يُبِيدون بالحَديد والنّار مَن ليسوا مِن دينهم «فإذا لقيتم الذين كفروا ـ محمد هو الذي يتكلّم ـ فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق فإما منّا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها»[3]. لكنه صحيح أن العرب كفّوا منذ وقت مبكّر عن استخدام العنف، وأن الكنائس المسيحية، سواء الرئيسية منها أو المُنشقّة، حافظت على وجودها إلى الآن تحت نَيْر محمد. فهي تملك بَطارِكَتها، مَطارِنتها، مجامعها، قوانينها ورهبانيّيها. أعلمُ جيّداً أنها تعيش مُعاناة كبيرة تحت

(١) ريكو، ص، ٣٠٥.
(٢) انظر: هوتنغر، تاريخ الشرق، ص، ٢٣٩.
(٣) سورة محمد، ٤. انظر، ريكو، الكتاب ٢، الفصل ٢، ص، ٣١٨.

سلطة هذا السيّد؛ وبَعْد، فهي عليها أن تشتكي من حَيفِ الأتراك ومُضايقاتهم أكثر من سيوفهم. العرب كانوا أكثر لُطفاً من الأتراك[1]: انظروا إلى البراهين التي قدّمها السيد جوريو[2]، والتي استمدّها من جرجس المكين ومن أوتيخيوس. يمكننا أن نكون متيقّنين جداً أنه لو أن مسيحيّي الغرب حكموا آسيا بدل العرب والأتراك لما بقي أثر اليوم للكنيسة اليونانية، ولما احْتَمَلوا الإسلام، كما احتمل هؤلاء الكفار المسيحية.

من الأحسن أن نسمع للسيّد جوريو: «يمكننا أن نقول بحق أنه لا سبيل أبداً للمقارنة بين وحشية العرب ضد المسيحيين، ووحشية البابوية ضد المؤمنين الحقيقيين [البروتستانت]. في بضع سنين ضد الفالديين، أو حتى فقط في مجازر سان بارتيليمي، أُريقت دماء في سبيل الدين أكثر ممّا أراقه المسلمون في كامل اضطهاداتهم للمسيحيين. مِن الأحسن أن نتخلّص من هذا الحكم المسبق، أي أن المحمّدية هي طائفة وحشيّة، وأنها لم تثبت إلاّ بتخيير الناس بين الموت أو الارتداد عن المسيحية: هذا لم يحصل أبداً، وتصرّف المسلمين كان ودَاعَةً إنجيليّة بالمقارنة مع ما قام به البابويّون، الذين تجاوزوا وحشيّة آكلي لحوم البشر. ليست إذن وحشيّة المسلمين التي تسبّبت في ضياع مسيحية الشرق والجنوب، بل هي بخلهم. إنهم يبيعون المسيحيين بثمنٍ باهض حرية الضمير، يُثقِلون كاهلهم بضرائب مشطّة، غالباً ما يجعلونهم يُعيدون شراء كنائسهم،

(1) *Voyez* Ricaut, *là-même, et chap. III.*

(2) Jurieu, *Apologie pour la réformation*, tom. II, p. 55 *et suiv., edit., in-4°.* Voyez aussi les *Pensées sur les Comètes*, p. 738.

والتي غالباً ما يبيعونها إلى اليهود، وبعدها يجب على المسيحيين شرائها من جديد: الفقر يدمّر الروح ويقلل من الشجاعة»[١].

وقد كرّر الشيء نفسه بعبارات وجيزة في إحدى عظاته[٢]، مفترضا دائماً أن المسيحية هلكت تحت سلطة الإسلام. لقد أخطأ، وكان سيتكلّم بشكل مختلف، لو أنه استشار جيداً المؤرخين: لكن ليست هذه هي النقطة الأهم. فلنتجاوز، ولنلاحظ أنه هو نفسه يُعلمنا بوضوح أن العرب والأتراك تعاملوا مع الكنيسة المسيحية بأكثر اعتدال مما تعامل به المسيحيون مع الوثنيّين، أو مع بعضهم البعض؛ ذلك أنه يرى أن الأباطرة المسيحيين قَضَوا على الوثنية بتدمير معابدها، بفسخ صورها، بمنع عبادة آلهتها المزوّرة، وأن الأمراء البروتستانت أزالوا البابوية، بحَرْق الصّوَر، بدَفْنِ الآثار المقدسة، مانعين كل طقوس وثنية[٣].

النتيجة التي أود استخلاصها من كل هذا، هي أن الناس قليلاً ما يتصرّفون بحسب مبادئهم: هنا لدينا الأتراك مُتسامحون مع كل الأديان، رغم أن القرآن يأمرهم باضطهاد الكفار؛ وهنا المسيحيون الذين لا يفعلون إلاّ الاضطهاد رغم أن الإنجيل يمنعهم منه. سيَقومون «بعملٍ جيّد» في الهند وفي الصين، لو حدث وساندهم الحكم الدنيوي: كونوا متيقّنين من أنهم سيستخدمون هناك قاعدة السيد جوريو. لقد طبّقوها

---

(١) جوريو، نفسه.

(2) *La IXe de l'an* 1688, p. 196. J'ai cité ses paroles, ci-dessus, remarque (O), citation (56).

(3) Voyez ce que j'ai cité des *Droits des deux souverains,* ci-dessus, remarque (O), citation (65).

بالفعل في بعض الأمكنة. اقرؤوا المقطع التالي، فستروا كيف أن البراهين حينما لا تكفي لإقناع الوثنيين، يُرجي من نائب ملك غُوَا (Goa) نَجْدَةَ الإنجيل بإصدار أحكام سجنٍ ومصادرة.. إلخ. «لقد أصبح من الضروري أن تتضافر سلطة جنابكم المُعظّم، مع سلطة الكنيسة، لكي تعطي الثمرة الوفيرة؛ إن إلهنا الربّ استعمل في العديد من الأشياء نائب الملك كوسيلته. لذا، حيث يجد البراهمانيون أنفسهم مجرّدين من الحجج، فهم يظنون أنه يكفي للدفاع عن أنفسهم، وللهروب، بطريقة أو بأخرى، من الشّبَاك، يزعمون العيش وفقا لتقاليد أجدادهم. ولكن عندما، بسبب العناد الفطري لعقولهم، لا يقرّون بأنهم هُزموا، ولا يخضعون إلى الحجج مهما كانت قوّتها؛ فإن نائب الملك، لحسم هذه المسألة، يصدر قانوناً، ينص فيه على أن البراهمانيين، مع عائلاتهم بأكملها، الذين يرفضون الدخول في المسيحية خلال أربعين يوما من نشر المرسوم، سيتمّ مصادرة أملاكهم وعقاراتهم، ونَفيهم، والعصاة منهم يُهدّدون بخطفهم وإرسالهم إلى السجون». انظر الملاحظة في الأسفل[1].

(BB) يمكننا أن نستمدّ براهين الانتحال من الوثيقة ذاتها.] تفكّروا قليلاً في كلمات السّيد بريدو هذه: «غروسيوس يرفض هذه المعاهدة ويعتبرها وثيقة منحولة، وهو محق في ذلك: لأن هذه الوثيقة مؤرخة في السنة الرابعة للهجرة، في وقت لم يكن فيه محمد في وضعيّة تُخوّل له استعمال اللهجة التي جعلوه يتكلم بها في هذه الوثيقة. إذ أن سلطته في تلك الفترة لم تكن بالقوة الكافية لإرغام أحد على طلب الحماية منه،

(١) البربرية التي مارسها الاسبان في أمريكا مروّعة.

نظراً إلى أنه كان قد هُزم منذ مدة وجيزة في معركة أُحُد، حيث تعرّض هناك لضربة قاسمة، في نفس التاريخ الذي دُوّنت فيه هذه الاتفاقية، يعني الشهر الرابع من تلك السنة، لم يكن قد تعافى كلياً من الضربة وبالتالي فهو في أدنى مكانة منذ أن حمل السّيف لنشر كذبته. علاوة على ذلك هناك خاصية أخرى تكشف زيفها بطريقة واضحة جدا. حسب هذه الوثيقة فإن معاوية بن أبي سفيان، كاتب محمد، هو الذي أعدّ المرسوم، إلاّ أنه من المعلوم المؤكّد أن معاوية، مع أبيه أبو سفيان، كانا يحملان السلاح ضد الكذاب، ولم يحدث إلاّ في زمن اجتياح مكة، بعد أربعة سنوات، أن انضمّا إليه واعتنقا كذبته لكي يُنقذا حياتهما»[١].

(CC) كان جديراً بأن يُتبَع كالمسيح المنتظر من طرف اليهود.] هناك كتّاب يقولون إن محمداً لبعض الوقت ادّعى أنه المسيح [المُنتظر]، ونَسَبَ إلى نفسه نبوءات العهد القديم التي كان قد حقّقها ربّنا[٢]. عن طريق هذه الحيلة جلب إليه العديد من اليهود: الحالة السيّئة التي كان عليها هذا الشعب في بلاد العرب جعلته قابلا لأن يُخدَع. يقال بأنهم لم يقطعوا معه إلاّ بعد هروبه من مكة، لكن أصحاب هذا الرأي لا يقدّمون أبداً أسباباً وجيهة لهذه القطيعة: لأن القول، كما يزعم العديد، بأنهم نَفَرُوا منه لأنهم رأوه يأكل لحم ناقة، هو حديث خرافة.

---

(١) بريدو، حياة محمد، ص، ١٥٨، ١٥٩، نشرة أمستردام.

(2) ***Pleraque Veteris instrumenti loca ad Messiam pertinentia impleverit, uti olim jam observatum Petro Cluniacensi apud Isaacum Vossium in scripto de Sibyllinis oraculis,*** **p. 25. Joh., à Lent., de Judeorum Pseudo-Messiis, p. 28, 29.**

وأنا لا أفهم حتى كيف يمكنهم أن يعتبروه المسيح، لبعض الوقت، نظراً إلى أن الكتاب المقدّس، من جهة، يقول رسميا إن المسيح سيخرج من بيت داود، وأن محمداً، من جهة أخرى - وهذا خبر مؤكّد - لا ينحدر منه، وهو من جنس وثني.

مهما كان الأمر، فلنستشهد بالكُتّاب الذين قالوا ما ذكرته: «**في بداية دعوته، عرض نفسه على زوجته خديجة، ثم على العرب وعلى اليهود مُدّعياً أنه المسيح الذي كان ينتظره اليهود، كما جاء عند أينوستينوس (Enustinus)** في كتابه: جنيالوجيا محمد، ص، ١٠. رئيس دير أورشبارغ في كتاب الحوليات، ص، ١٥٠، يقول: «هذا الرجل كان نبيا كذابا، لكنه اعتُبر من طرفهم رجل عظيم، بحيث إن في بداية ظهوره، اعتقدوا أنه المسيح المنتظر»[1]... **وقد اتّبعه العديد من اليهود الذين على التوّ رأوا في محمد المسيح الحقيقي. ثيوفانس وكتّاب آخرون من ذلك العصر، يُعلمونا أن اليهود انضمّوا إلى محمد حتى قَتْله** (μεχρι της σφαγης αυτου) لكن عوض (قتل، «σφαγης») **الأفضل قراءة** (هروب «φυγης»)، **أي حتى هروبه، هكذا يحذرنا اسحاق فوسيوس، رجل ضليع في الآداب اليونانية، في ملحق النبوءات السيبيلية، ص، ٢٤، حيث قال إن ثيوفانس وآخرون قد اتّبعوا القراءة المحرّفة. وبالمثل، بعضهم يقولون إن اليهود تَخلّوا عن محمد بعد أن شاهدوه يتغذى بلحم جَمَل، وآخرون يقدمون أسباباً أخرى»**[2].

لا شك في أن اليهود لم يتّبعوا محمداً حتى مماته لأنه اضطهدهم

(1) Joh., à Lent., *de Judeorum Pseudo-Messiis*, p. 29.

(٢) نفسه، ص، ٣٠.

بكل وحشية، بالسيف والقَلم: أظهر كُرهه الشديد لهم في عديد المواضع من القرآن، والحرب التي شنّها عليهم كانت دمويّة جداً، وكارثيّة للغاية[١]. الأتراك يتبعون في هذا بصفة مبهرة عبقريّة نبيّهم، فهم يحقدون على اليهود بشدّة أكثر من أي شعب آخر في العالم، ولا يَقبلون بأن يُدفن يهودي تحوّل إلى الإسلام في مقابرهم[٢]. لكن ما يقال من إنهم لا يتحمّلون اليهودي الذي يريد أن يعتنق الإسلام أن ينطق بالشهادة مباشرة إلاّ إذا اعتنق في البداية المسيحية، هو خطأ.

(DD) المسلمون يعظّمون محمداً كثيراً.] يمكنني أن أسوق العديد من الشهادات لهذا الغرض، لكنني سأكتفي بالنَزر القليل. الخليفة [العثماني] يُرسل كل سنة لبلاد العرب «**خمس مائة صفيحة من ذهب، قرآنا مغلفا بالذهب، مَحمولاً على جمل، ونفس العدد من القماش الأسود، ككسوة للكعبة. حينما توضع الكسوة الجديدة، تُنزَع القديمة، والحجيج يقطعونها إرباً وكل واحد منهم يحمل معه نصيباً ممّا يقدر على خصمه. يحفظون تلك القصاصات عندهم كما لو كانت بقايا مقدسة، وكعلامة لتأديتهم فريضة الحجّ... حينما يعود الجمل الذي حمل القرآن يُكلّل بالورود وبأنواع أخرى من الزينة، وبعدما ينتهي من هذه السفرة المقدسة، يُعفى كامل حياته من أداء أي شغل أو خدمة**»[٣]. الأتراك يبجّلون كثيراً الجَمَل «**ويَعتبرون خطيئة كبرى إجهاده بحُمُولة مُشطّة،**

---

(1) *Voyez* Hottinger, *Histor., orient.*, p. 214 *et seq.* Johan., à Lent., *de Pseudo-Messiis Judaeorum*, p. 30. Ex Elmacino, p. 6.

(٢) ريكو، حالة الإمبراطورية العثمانية، الكتاب ٢، فصل ٣، ص، ٣٢٥.

(٣) لقد قرأتُ في أخبار دخول البابا كليمانس الثامن مدينة فيرارا، أن الدابة أو البغل الذي استُخدم في تلك الاحتفالات لا يشتغل بعدها أبداً.

وتشغيله أكثر من الحصان. السبب في ذلك أن هذا الحيوان منتشر بكثرة في المناطق المقدسة لبلاد العرب، وله فخر حَمْل القرآن في رحلة الحج إلى مكة. لقد لاحظتُ أن القائمين على هذا الحيوان يأخذون الرّغوة التي تنزل من فيه، بعد إرتوائه من حوض، ويدلكون لِحِيَهم بورع شديد كما لو كانت عطرا ثمينا، ويفعلونه بترديد عديد المرات: حاجي بابا، حاجي بابا يعني يا أبي الحاج، يا أبي الحاج!».

وإليك مقطع استقيتُه من لاموث لو فايير (la Mothe-le-Vayer) «حيثما امتدّت الديانة الباطلة لمحمد، ذريّته المسمّون شرفاء(*)[1] يُحظون بالتقديس إلى درجة أن لا أحد غيرهم يتجرّأ على حمل العمامة الخضراء[2] وأنهم غير قابلين للمحاكمة. وكيف لا يحترم الأتراك والمسلمون الأخرون، الرجال المنحدرين من هذا المحتال، وهم يقدسون حتى الجياد المنحدرة من الجواد الذي حمله، ولا يجرؤون على ضربه أو الاساءة إليه، كما يُعلمنا السيد بريفيس (Brèves)؟»[3].

إن العديد من الحجّاج، بعد رؤية قبر محمد، يَفقؤون أعينهم كما لو أن باقي العالم أصبح غير جدير بالنظر، بعد مشاهدة مثل ذاك الصرح العظيم. لقد قرأتُ هذا عند برانتوم (Brantôme)، ويَسُرّنا أن نعرف المناسبة التي يذكر فيها هذا الحدث: «عندما حلّ اليوم ـ يقول ـ الذي أدّى فيه سفراء بولونيا[4] مراسم التحيّة لمَلكة نافارّ (Navarre)، تَجلّت

---

(١) (*) ليون الإفريقي.

(٢) M. Spon, Voyage, tom. II, p. 16, (يؤكد أن أولئك الذين ولدوا أثناء سفر أمهاتهم للحج، لهم الحق في حمل العمامة الخضراء).

(3) La Mothe-le-Vayer, tom. VIII, p. 364.

(٤) أولئك الذين قدموا التاج إلى دوق أنجو، شقيق شارل التاسع.

لهم في غاية الجمال وفي أبهى حلّة وأفخم زينة، بجلال وسحر لا يضاهى، بحيث إن جميعهم فقدوا لبّهم لهذا الجمال؛ ومن بينهم كان هناك الحاجب، واحد من أهم العاملين في السّفارة، الذي سمعته يقول في خلوته، لا أريد أن أرى شيئاً آخر بعد هذا الجمال؛ عن طيب خاطر أجرؤ القيام بما يعمله بعض الأتراك الحجاج إلى مكّة، أين يوجد ضريح نبيّهم محمد، والذين يبقون ذاهلين، مفتونين، مبتهجين لرؤيتهم مسجد بهذا الجمال والرّوعة لدرجة أنهم لا يريدون أن يروا شيئاً آخر بعده، ويَسْملون أعينهم بواسطة بِرَكٍ من النّحاس المُتوهّج، حتى يفقدوا البصر. يفعلون ذلك بمهارة، قائلين إنه بعد هذا لا شيء جميل يمكن رؤيته؛ هكذا يتحدّث هذا البُولوني عن جمال تلك الأميرة»[1].

بما أن سلطة برانتوم (Brantôme) قد لا تكفي، سأستشهد بما قاله رَاهِبَان مارُونيّان: «ومن هنا فإن العديد منهم يغادرون بلدانهم ويتركون ذَوِيهم لبلوغ ذاك المكان؛ الكثير منهم يسقطون في حالة هيجان وجنون إلى حد أنهم يُقدِمون على اقتلاع أعينهم (*oculos eruerunt*) لكي لا يَرَوْا ـ كما يقولون ـ أي شيء دُنيوي؛ ويُقضّون بقيّة حياتهم هناك»[2]. هذا يُذكّرني بخاطرة للسيد أوجييه (Ogier): لقد استعمل لكتابة تأبين فيليب الرابع، ملك إسبانيا[3] «كل ما يمكن أن تُتيحه له الدُّربة وسنوات الدراسة الطويلة لاكتساب العلم في فنّ الخطابة، وبعد ذلك العمل قرّر

(1) *Vies des Dames illustres, ou discours de la reine Marguerite*, p. 205.

(2) Gabr. Sionita et Jo. Hesronita, in *Tractatu de nonnullis Oriental. Urbibus*, p. 26.

(3) *Journal des Savants*, du 22 de février 1666, p. 160, 161.

بأن لا يقترب مرّة أخرى مِن الخطابة وبأن يَقتَفي أثر سيّدٍ من هولاندا الذي بعد أن استضاف الملك شارل الخامس في واحدة من منازله، طيّرها في الهواء من الغد بواسطة بارود مدفع، معتبراً أن لا واحد يستحق أن يدخلها بعد ذاك الملك الرائع»[1].

لم أذكر بَعدُ كل الإجلال الذي يكنّه المسلمون للحيوانات من أجل حبّ محمد. يوجد في الحرم المكي عدد هائل من الحمام؛ وبما أنهم يتصوّرون أنها تنحدر من تلك التي كانت تقترب من أذن النبي الكذاب، يعتقدون أنه يقترف جرماً كبيراً، ليس فقط من يقتلها، بل أيضاً حتى من يقبض عليها أو يَهشّها: «يوجد هنا عدد هائل من الحمام، بما أنها من جنس وسلالة تلك التي تحطّ على أُذُنِ محمد (كما يدّعي المسلمون) وفّروا لها امتيازاً ونفوذاً، حيث ليس فقط قتْلها، بل القبض عليها أو هَشّها، يعتبرونه جريمة»[2].

لقد نَقلتُ هذا المَقطع عن قصد لكي أبرهن على أن هناك كتّابا مشاهير يؤكدون أن المسلمين يذكرون تلك اليمامة التي تقترب من أُذُن محمد، لكن رغم ذلك فإنه لا ذكر لها عند الكتاب العرب، إذا صدّقنا بوكوك[3]. لا ننسى الجَمَل الذي «من مكة إلى المدينة حَمَل محمداً رأساً إلى باب منزل جول، قائد تُركي شهير الذي رغب هذا النبي في زيارته،

(1) Conférer avec ceci le passage de Térence, rapporté tom. V, p. 493, citation (11) de l'article **DIAGORAS** athlète ; et celui de Pline, rapporté, citation (67) de l'article **HERCULE**, tom. VII, p. 88.

(2) Gabr. Sionita et Jo. Hesronita, in Tractatu de nonnullis Oriental. Urbibus, *cap. VII*, p. 21.

(٣) انظروا في الأسفل الملاحظة (V).

دون أن يعرف المكان الذي يقطن فيه هذا الرجل الصنديد»[١]. المحمديون يزعمون أن هذا الجمل سيُبعَث [يوم القيامة]، وأنه سيتمتّع بسعادة الجنة[٢]. ماذا أقول عن قميص محمد؟ إنها محفوظة في قاهرة مصر، وتُحمل في استعراض (يطاف بها) في أيام محددة في موكب مهيب[٣].

وبَعد فإنه من الخطأ القول بأن المسلمين أبدوا تعظيمهم لمحمد بنحت تمثال له. ثمّة إذن كذبة في تاريخ الحرب المقدّسة [الحرب الصليبية] الذي نشره الأب مابيون (Mabillon)[٤]. الكاتب يتحدّث عن تمثال لمحمد عُثر عليه في جامع يسمّيه معبد سليمان. «يقول إن تانكريد (Tancrède) وجده جالساً على عرش بارتِفَاعٍ شاهق، وكان ثقيلاً لدرجة أن ستّة رجال أقوياء بالكاد يمكنهم أن يرفعوه قليلاً، ويحتاج على الأقل إلى عشرة لرفعه. وقد وضع على فم تانكريد خطابا متشنّجا موجّهاً للتمثال، يدعو للشفقة، حيث تخيّل أنه كان لمحمد، فصاح: هذا هو محمد الشقيّ الذي كان أوّل مسيحٍ دجالٍ. آه! لو أن المسيح الدجال الذي سيأتي، سيرافقه هذا! آه! لَسَحقتُه بجدٍّ تحت قدميّ. لكن، أولئك الذين لهم دراية بمشاعر المسلمين، يعرفون أنهم لا يتخلون أيّ صورة، لا في مساجدهم، ولا في بيوتهم».

(١) شيفرو، تاريخ العالم، كتاب ٥، ج. ٣، ص، ١٤.

(٢) نفسه.

(3) La Mothe-le-Vayer, *lettre CXVI, tom. XII*, p. 33. *Il cite le* Voyage de Gouz.

(4) *Dans le IIe tome du* Musaeum Italicum.

هناك مسألة هل أن المسلمين يتوسّلون بهذا النبي الكذاب، وهل يعتقدون أنه في السماء؟ كثير من الناس ينسبون لهم هذا المعتقد[(١)]. «لكن ليس هناك من صلاة تُوَجّه إلى الله، دون أن يُصَلّوا فيها أيضاً على محمد؛ ويقولون إن كل الأرواح، سواء روح النبي أو الأخرى، هي جاثمة حتى يوم الحساب في القبور التي دُفنت فيها أجسادهم[(٢)]... روح محمد هي أيضاً مَسئولة في قبره، لأنه رفض السماء، أين عرض عليه الله الالتحاق به، مُمتنعا عن أن يَعرج هناك دون أتباعه المؤمنين. هذه الروح ستقود، يوم القيامة، كل أرواح المحمديين إلى المجد السماوي... لكي نرى كيف أنهم يدعون الله لمحمد، هذه ختام واحدة من صلواتهم: اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صلّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد».

إذا لم تكن لدينا براهين أفضل على أن أتباع محمد لا يبتهلون له، لا أودّ أن أنفي أنهم يبتهلون؛ لأنني سبق وأن أوردت نص دعاء يبتهلون الله لأرواح القدّيسين الذين يُعظّمونهم[(٣)]. أما بخصوص احترامهم للقرآن، انظروا ماذا يقول السيد بفايفر في المجلد السابع من المكتبة الكونية[(٤)]. تعلّقهم بالمحمدية (الإسلام) هو من القوّة إلى درجة أنه لا يمكن تقريباً تحويل أي واحد منهم إلى الديانة المسيحية[(٥)]؛ ومن الأكيد

(1) Bibliothèque universelle, *tom. X*, p. 98, *dans l'extrait d'un livre publié par* M. Barrow, intitulé: Abrégé de la Foi et de la religion des Turcs.

(2) Bibliothèque universelle, *t. X*, p. 100.

(٣) في مقال فاطمة، ج. ٦، ص، ٤١٠، ملاحظة (D).

(٤) ص، ٢٦٤.

(٥) «تجربتنا حتى الآن تعلمنا، ولا تزال يوميا تعلمنا في مملكة الهند الشرقية.. الخ، أنه=

أن هناك عدداً من المسيحيين اعتنقوا الإسلام أكبر من عدد المسلمين الذين اعتنقوا الإنجيل. الوثنيّون من السّهل هدايتهم إلى المسيحية[1]. التّمييز الذي قام به الراهب ريشارد يبدو لي عقيماً. يقول إن مسلما يتحوّل بالأحرى إلى المسيحية في ساعة الموت، عوض أن يفعل ذلك في حالة صحته الجيّدة؛ وأن مسيحياً لا يعتنق أبداً الإسلام في ساعة موته: كلاهما يتّفقان على أنّ الدّيانة المحمّدية هي مُلائمة للعيش، وأن المسيحية أضمنُ للموت[2]. هذا التمييز هو خاصية يتباهى بها الكاثوليك الرومانيين والبروتستانت على حد سواء. انظروا إلى الملاحظة (E) من مقال «أبو الفرج». لكن الحقيقة هي أن، باستثناء النزر القليل من الناس، كل واحد يَتمنّى الموت على الدين الذي شَبّ فيه: إذا تخلّى عنه، فهذا يحدث لأجل منفعة شخصية، وحينما يُشرف على الموت تصبح تلك المَنفعة غير مُجدية، وبالتالي فهو يتمنّى الموت على عقيدته الأولى. إن مسلماً ما، سيبقى ساكناً هناك مثل كل الآخرين، إذا حدث له، لاعتبارات شخصية، أن يَكفر بدينه. الجهل يفعل في قلوب هؤلاء

=يمكن ادخال العديد من الوثنيّين في المسيحية، أما من بين المسلمين أبداً أو قليل جــداً (nullos aut paucissimos)». (Gisb. Voétius, disputat., *tom. II*, p. 668).

(١) انظروا كلمات فوسيوس التي استشهدت بها للتو.

(2) Christianus quidem nunquam in morte fieret Saracenus, sed in vita; Saracenus autem potius in morte fit christianus, quam in vita: uterque igitur horum potius eligit christianus mori, quam Saracenus. Richardus, *Confutat. Legis Saracen., cap. X, apud* Hoornb., *Summa Controv.*, p. 208.

الكفار ما يفعله العلم في قلب أرثودكسي صادق، أعني تَشبّثا لا يُقهر بمعتقداته.

لكن أقول عابرا إن الديانة المحمدية ليست، كما يُعتَقَد عادة، مَعْدومة المُتكلّمين المُنافِحين (apologistes). هناك كتاب عرب كتبوا لصالح القرآن وضد الإنجيل، بكفاءة عالية لدحض الأحكام المسبقة. هوتنغر يتكلم عن كاتب [مسلم] يَفْلِي التناقضات الظاهرية للكتاب المقدس[1]، ويزعم حتى البرهنة من خلال الإنجيل نفسه على رسالة محمد. سنكون بسطاء لو اعتقدنا أن تُركيّا [مُسلما] يفحص عن الموضوع، سيَجده بهذا القدر من الضعف كما نجده نحن. لن يَلمَح أي قوّة في الاعتراضات ضد القرآن؛ لكنه يرى العديد منها في الاعتراضات ضد المسيحيين. كبيرة جداً هي قوّة التحيّز! (الأحكام المسبقة).

(EE) ليس صحيحاً أن تابوته معلق في الهواء.] ثمّة عدد غفير من الناس يقولون ويعتقدون أن تابوت محمد هو من حديد، ويقع تحت قبّة حجر مغناطيس، مُعلّق في الفضاء، وهذا يُعدّ معجزة كبيرة عند طائفته. إنها خرافة تُضحكهم فعلا، حينما يَعلَمون أن المسيحيين يَروونها كحقيقة ثابتة. «**مِن أين لنا أن تابوت محمد هو من حديد ومجلوب بقوّة مغناطيسية تعلقه في الهواء؟ هذه إذا رُويت للمُحمديّين [المسلمين]، فسيَنفجرون ضحكا من شدّة جهلنا بمعتقداتهم**»[2]. لكنّ محمداً لو تَفطّن إلى هذه الحيلة، لما كان قد فعل أكثر من تجديد طموحٍ قديم جداً.

---

(١) اسمه: أحمد أبو العباس ابن إدريس الصنهاجي المالكي. انظروا: هوتنغر، التاريخ الشرقي، ص، ٣٣٧.

(2) Pocockius, *Specimen. Histor. Arabum*, p. 180.

واحد من مُلوك مصر رغب في أن يعامل معاملة استثنائية تمثال زوجته، لكن موته وموت المهندس حالتا دون تحقيق غرضه: «المُهندس دينوكارس استعمل حجر المغناطيس لتشييد قبّة معبد أرسينوس بالإسكندرية لكي يَظهر التمثال الحديدي وكأنه مُعلّق في الهواء. لكن موته وموت الملك بطليموس، الذي أمر بهذا النصب لأخته، حالتا دون اتمامه»[1]. إذا صدّقنا أوزونيوس، هذا المشروع تمّ إنجازه لأنه يتكلم عنه وكأنه شيء موجود حالياً؛ لكن الشعراء لا ينظرون للأشياء عن كثب، فلنُصدّق إذن ما رواه لنا بلينوس.

> هنا ربما قد أتى مهندسُ قَصْرَ أسرةٍ بطليموس، دينوكاريس: بفضل فنّه الحاذق، رفع إلى القمّة أقساما أربعة من الجدران ثلاثية الأضلاع، وأقام هَرما يستقطب الظلّ. وقد كان في ما مضى تلقّى الأمر، لتَخليد ذكرى حبّ مَحارم، بتعليق تمثال أرسينوس في أعالي فضاء معبد فاروس، لأن تحت قبّة السقف هناك حجر مغناطيس أزرق يمتصّ ويجذب عن طريق خيط من حديد تمثال الفتاة[2].

القديس أوغسطينوس لا يشك في أن مهارة الإنسان قادرة على أن تُبدع ذلك المَعْلَم: لم يذكر المكان بالتحديد[3]؛ يقول فقط إنه شُوهِد، في أحد المعابد، تمثال حديديّ معلّق في الهواء، على نفس المسافة

(1) Plinus, *lib. XXXIV, cap. XIV, in fine*, p. 150.

(2) Ausonius, *Edyllio X de Mosellâ*, vs. 311.

(3) الأب هاردوين في (Plinium, *lib. XXXIV, cap. XIV*) ما كان ينبغي له أن يقول أن القديس أوغسطينوس يؤكد هذا بخصوص تمثال كان موجوداً في معبد سيرابيس.

بين السّقف والقاع لأن حجر المغناطيس الذي يجذب من أعلى وذاك الذي يجذب من أسفل كانا بنفس القوّة: «**يقومون بصناعة تلك المُعدّات الرائعة التي يسمّونها آلات (μηχανηματα) بمخلوق من الله عن طريق استخدام صناعات إنسانية بحيث إن أولئك الذين يجهلون تلك الأسباب يعتقدون أنها عمل إلهي. لقد حدث، مثلا، أن وُضع في أحد المعابد حجر مغناطيس في القاع وحجر في السقف بنفس القوّة. بالنسبة لأولئك الذين لا يعلمون ما يوجد في الأعلى والأسفل، يبدو لهم وكأن صورة حديدية معلقة في الهواء كما لو كانت بقدرة إلهية فائقة..**[1]».

فهو يلاحظ أن الناس الذين لا يُدركون سبب هذا المفعول، ينسبونه إلى الله. من المُرجّح أن المعبد الذي يذكره القديس أوغسطينوس هو معبد سيرافيس في الإسكندرية، لأن هذا ما يقوله روفين (Rufin) في حكايته عن الحِيَل التي اكتشفها المسيحيون في ذاك المعبد حينما استولوا عليه: «**كانت هناك خدعة من نفس النوع: يُذكر أن طبيعة حجر المغناطيس لها هذه الخاصيّة من حيث أنها تقبض وتجذب الحديد. هناك صورة للشمس صُنعت من حديد بيدي فنّان في غاية المهارة، وبما أن من طبيعة المغناطيس، كما قلنا، جذب الحديد إليه، حينما ثُبّت في السقف استقطب الحديد نحوه وبالتالي فإن الصورة بدت للناس وكأنها مرتفعة ومُعلّقة في الهواء**»[2].

ويَنقل بروسبر نفس الرواية، لكن مع حادثة لم يتكلم عنها روفين:

---

(1) Augustin., *de Civit. Dei,* lib. XXI, cap. VI.

(2) Ruffinus, *lib. II. Histor., eccles.*, cap. XXIII, *apud Coquaeum Notis* in August., *de Civit. Dei, lib. XXI, cap. VI*, p. 961.

يقول إن خادماً أميناً لله علِم بإلْهام إلهي سرّ تلك الحيلة، انتزع من سَقف القبّة حجر المغناطيس، وفي الحين وقع ذلك التمثال على الأرض وتهشّم إلى ألف قطعة: «**في الإسكندرية، في معبد سيرابيوس، الشيطان استعمل هذه الخدعة: عربة من حديد لا هي مدعّمة من الأسفل بأي مصطبة ولا مثبّتة في الجدار بأيّ شمّاعات، معلّقة تتدلّى في الفضاء، تَعرِض للناظر هيئة مُعجزة وباهرة، في حين أن حجر مغناطيس جاذب للحديد موضوع في ذلك المكان من الجدار يحمل الآلة كلها. لكن أحد خدام الله اكتشف الحيلة بنوع من الالهام فسَحَبَ المغناطيس من الحائط وعلى الفور هَوَتْ الأعجوبة على الأرض فتَهشّمت قطعاً، مُبرهنا بذلك على أنها ليست إلهية، وإنّما مجرّد اختراع إنساني**»[1].

إذا صدّقنا كاسّيدور[2] (Cassiodore) هناك في معبد ديانا تمثال من حديد للإله كوبيد [إله الحبّ الاغريقي] معلّق في الهواء. المؤلف المجهول لحوليّات تريفيس (Annales de Trèves) استشهد برسالة غَالْبَا فِيَاتور (Galba Viator) كُتِبت للسفسطائي ليقينيوس (Licinius) أين غَالِبا ما يُحيط مُراسله علما بأنه شاهد في تريفيس تمثالا للاله مِيركور، صُنع من حديد وثقيل جداً، معلق بين السماء والأرض، بسبب تَوازن القوى التي تجذبه للأعلى وللأسفل[3]: كانت هناك قطعة مغناطيس في القاع وأخرى في سقف القبّة، وقد وُضع ذلك التمثال مباشرة فوق وتحت هذين القطعتين من المغناطيس.

---

(1) Prosper, *de Praedict.*, part. III, cap. XXXVIII, *apud eumdem Coquaeum Notis* in August., *de Civit. Dei, lib. XXI, cap. VI*, p. 961.

(2) Cassiodor., *Variar.*, lib. I, epist. XLV, p., m. 45.

(3) *Voyez l'*Ausone Variorum de Tollius, p. 403.

أجد صعوبة كبيرة في الاعتقاد في هذه الأشياء، سواء بسبب المسافة الكبيرة الفاصلة بين التماثيل الحديدية وأحجار المغناطيس التي تجذبها، أو بسبب الصعوبات التي لا يمكن التغلّب عليها لإيجاد نقطة التوازن بين القوّتين الجاذبَتين[١]. أعتقد بالأحرى في ما قيل عن تمثال إله الحرب مارس، الملتصق بفينوس مُمَغنطة:

إله الحرب مارس (Mars) يَلْمَعُ تمثاله الحديدي

فينوس في صورة جوهرة مغناطيسية.........

هناك عمل عبقري يرتفع، فينوس تجذب تلقائيا زوجها

ومحدّقة في السرير الأوّل في السماء،

تشدّ صدر مارس، حاملة وزنا ثقيلا، وتقترب من الخوذة

بأيادٍ مسترخية، تُحيطه وتُعانقه

لكن من المؤكد على الأقل أن قبر محمد لا يجب أن يُعدّ من بين هذه العجائب. هذا النبي الكذاب دُفن في المدينة حيث مات هناك: بعض الكتاب يقولون إنه وضع في قبر عائشة[٢] واحدة من زوجاته، التي أحبها أكثر من سواها، تلك التي يدعوها المسلمون أم المؤمنين، أو أم المسلمين، امرأة عارفة باللغات، وعكفت بجدّ على دراسة

(١) انظروا غاسيندي الذي يذكر حصان بيليروفون (Bellérophon) الذي حيكت حوله نفس الأساطير التي حيكت على تابوت محمد. يرفض كل هذا.

(Gassendi, *Operum*, tom. II, p. 134)

(2) Gabr. Sionita et Jo. Esronita, *ut infrà*, p. 25. *Voyez la remarque* (OO), *où nous critiquons cette expression.*

التاريخ[1]. هذا القبر هو صندوق من حجر، موضوع على الأرض في محراب لا يدخله أحد، لأنه محاط بقضبان من حديد. حجيج مكّة يذهبون هناك بتقوى بالغة، ويُقبّلونه بِوَرَع شديد. هذا ما تجدونه في كتيّب «في بعض المدنية الشرقية (De nonnullis Orientalium Urbibus)»، ألّفاه جبريل الصهيوني ويوحنا حسروني، وقد أُلحِقَ بـ «جغرافيا النوبة (Geographia Nubiensis)»، واللذان نشرا منه ترجمة لاتينية في باريس سنة ١٦١٦. انظروا أيضاً إلى مقالة السيد ساموبل أندريه «قَبْر محمد (De Sepulchro Muhammedis)». سنرى في الملاحظة التالية أن السيد بيرنييه يشهد بزيف الحكايات التي تُروَى عن قبر محمد.

لن أبرح هذه النقطة دون أن أورد قصة سخيفة جداً قرأتُها في رحلات دي مونكونيس (de Monconys) «يقال إن في مكة هناك صخرة مُعلقة في الهواء منذ أن صعد عليها محمد لكي يعرج بالبراق؛ إنه حيوان، حسب القرآن، أصغر من البغل وأكبر من الحمار، بعثه الله له لكي يحمله إلى السماء. بما أن الصخرة رأته صاعداً تَبِعَتْهُ، ولكنه هو أوقفها، فبقيت معلقة في المكان الذي تركها فيه؛ آخرون يقولون إن منذ ذلك الحين، بعض النسوة الحوامل مَرَرْن تحتها، وخوفا من أن تقع عليهن جُرحن، فوضعوا أحجارا تحتها لكي لا تقع على الأرض، لكن لا فائدة منها لأنها حتى بدونها بقيت معلقة في الهواء»[2].

(FF).... ليس من المؤكد أن يقدر مهندس معماري على انجاز عمل من هذا القبيل.] يُمكنني أن أستشهد بسُلطةٍ لا يمكن الاستهانة بها:

(1) Gabr. Sionita et Jo. Esronita, *de nonnullis Oriental. Urbibus*, p. 23.

(2) *Voyages* de Monconys, *Ire part.*, *in-4°.*, p. 464, 465, *à l'ann.* 1648.

إنه البيان الذي صرّح به واحد من أشهر تلاميذ غاسيندي (Gassendi). فَلنُورِد كلماته: «لا أقول شيئاً عن التعليق المزعوم لقبر محمد الحديدي، في مكة، بين مغناطيسين متساويي القوة، ومُرتّبان على شكل قبّة، كما كان قد قيل من قبل عن الحصان الحديدي لبيليرفون، لأنها أشياء تتجاوز كل صناعة إنسانية ذلك أن عملاً من هذا القبيل يتطلّب العديد من أحجار المغناطيس بنفس القوة، أو إمكان تجهيزها بصيغة تسمح بأن يكون الحديد الذي في الوسط غير مُتأثر بقوة متفاوتة من مكان لآخر، أو أن يكون الحديد من كل جهة بالصورة، والسُمك والحرارة اللازمة لكي يُجذَب بنفس القوة من جميع الأماكن؛ ومع ذلك فإنه من الثابت أن أي اختلاف طفيف، سواء في المغناطيس أو في الحديد أو في المكان، يجعل من هذه الجهة تتغلّب على الأخرى. يُمكنني أن أضيف، بما أنّني قَضّيت أكثر من شهر في جِدّة قُبالة البحر الأحمر، وهي تَبعد مسافة يوم على مكة، أن قبر محمد لا يوجد أبداً في مكة، وإنما في المدينة، على مسافة ستة أو سبعة أيام منها، وفي تلك الأماكن لم يَسمع أحد قط الحديث عن هذه القبة من مغناطيس ولا عن هذا التعليق في الهواء»[1].

السيّد فالومون (Vallement) يرى، على العكس من ذلك، إمكانية تعليق تابوت من حديد في الهواء. وهذه حُجّته: «الأب كابيوس (Cabéus) قال إنه وضع يوما ما قطعتين من المغناطيس واحدة فوق الأخرى، تبعدان عن بعضهما تقريباً أربعة إصبع: إثرها مَسَك بإصبعين إبرة خياطة من الوسط، ووضعها بلطف بين قطعتي المغناطيس، باحثا

(1) Bernier, *Abrégé de la Philosophie de Gassendi,* tom. V, p. 322, 323.

عن المكان الأوسط حيث لا تكون فيه الابرة عُرضة للجذب من واحدة أكثر من الأخرى، فبَقِيَتْ معلقة في الهواء دون أن تُشَدّ إلى شيء. هذا يستلزم قليلاً من الوقت، وكثيرا من البراعة، لإيجاد تلك النقطة، ولوضع الابرة دون أن تسقط، وهو ما يحدث بأقل حركة هواء. ومع ذلك فإن هذه التجربة نجحت مع الأب كابيوس. وقد بقيت الإبرة معلقة في الهواء بين قطعتي المغناطيس، دون أن تلمس شيئاً، وهذا المشهد البديع بقي الوقت اللازم لكي يُرتّل أربعة آيات طوال. لكن بما أنه قام لكي ينادي بعض أصدقائه، فإن حركة الهواء، قطعت، إن صح التعبير، هذا السحر البريء.

حول هذه الظاهرة فإن هذا الفيلسوف لا يجد أي صعوبة في التأكيد على إمكانية، باستخدام هذه الوسيلة، تعليق في الهواء صندوق من حديد في غرفة حيث جدرانها مُثَبّتَةٌ فيها أحجار مغناطيسية[١]... هذا الراهب اليسوعي يقول ذلك بمناسبة ما يروى أحياناً عن أن أتباع الكافر محمد وضعوا جسمه في صندوق من حديد معلّق في الفضاء بواسطة المغناطيس. لكنه لا يشكّ في أن هذه خرافة، وهي بالفعل كذلك». السيّد فالّومومن يورد بعدها آخر كلمات مقطع بيرنبيه الذي رأيناه أعلاه، ويعيب عليه تأكيده بأنها شيء يتجاوز كل صناعة إنسانية. «البرهان العقلاني - يواصل فالّومومن، يثبت العكس تماما، وتجربة الأب كابيوس تُقرّر الأمر ضد السيد بيرنبيه»[٢]. أنا أجرؤ القول إن هذه التجربة تُقرّر بالأحرى لصالحه لأنها تتطلّب صبراً طويلاً ومَهارة فائقة، ولا تُنتج

(1) Vallemont, *Description de l'aimant trouvé à Chartres*, p. 167.

(٢) نفسه، ص، ١٧٠.

شيئاً يمكن أن يدوم، رغم أن الأمر يتعلّق فقط بإبرة صغيرة. احكموا بأنفسكم عن المصاعب التي يجب التغلّب عليها لتعليق، بين مغناطيسين، تابوت من حديد. السيد بريدو يعتقد في نفس الشيء الذي يعتقده فالومون؛ ذلك لأنه بعد أن قال إن محمداً دفن في المدينة[1]، وهو هناك إلى اليوم دون صندوق حديدي، ودون أحجار مغناطيس، أضاف هذه الكلمات: «لا أزعم نُكران إمكانية حدوث الشيء؛ أعلم أن دينوكراتس[*][2]، مهندس شهير، شيّد قبّة معبد أرسينوي في الإسكندرية من المغناطيس، وبهذه الوسيلة، عُلّقت الصورة الحديديّة لهذه الأميرة التي كانت في وسط ذلك المعبد، دون أن يَحملها أي سَنَد. لكن لم يفعلوا أي شيء لصالح جثة محمد».

(GG)... تَسري العديد من التنبؤات تهدّد بزوال المحمدية منذ عهد بعيد.] يؤكد بيبليانذر (Bibliander)[3] أن هناك نبوءة شهيرة عند المسلمين، تبثّ الرعب في قلوب الرجال والنساء، وهي أن إمبراطوريتهم ستنهار على أيدي المسيحيين. إليك العبارات التي تصوّر هذه النبوءة، مُترجمة من الفارسية إلى اللاتينية من طرف جيورجيفتس «سيأتي إمبراطورنا، وسيستحوذ على مملكة الكفار، سيأخذ جنوده التفّاحة الحمراء، سيُسيْطرون عليها حتى السنة السابعة، وإذا لم يُبعث من جديد سيف الكفار سيَحكمهم لمدة اثنتي عشرة سنة، سيَبني

(١) بريدو، حياة محمد، ص، ١٣٤.

(2) (*) Plin., *lib. 34, cap.* 14.

(3) *De Rationae communi omnium Linguar.*, *apud* Besoldum Considerat., *Legis et Sectae Saracenorum*, p. 47.

المنازل، سيزرع العنب، سيُسيّج الجنان بأسوار، سيَلد أبناء وبنات، بعد اثنتي عشرة سنة سيف المسيحيين سيُبعث بقوّة وسيَقضي على الأتراك»[١].

وقد نشر سانسوفان (Sansovin)[٢] كتابا سنة ١٥٧٠ يؤكد فيه أن هناك نبوءة تقول إن شريعة محمد لن تدوم إلاّ ألف سنة وأن إمبراطورية الأتراك ستنتهي تحت السلطان الخامس عشر[٣]. يضيف إن ليون الفيلسوف، إمبراطور القسطنطينية، كتب في احدى مؤلفاته أن أُسْرَة شقراء مع حلفائها سيدحرون كل المسلمين، وسيأخذون صاحب الجبال السّبع. نفس هذا الإمبراطور يذكر عاموداً في القسطنطينية كُتبتْ عليه نقوش فسّرها بطريك المكان على أن معناها هو أن البندقيين والروس [الموسكوفيت] سيستولون على مدينة القسطنطينية، وأن بعد بعض الخلافات سيبايعون بالإجماع ويُتوّجون إمبراطوراً مسيحياً[٤]. هذه الأسرة الشّقراء القاتلة للمسلمين، تذكّرني بمقطع للسيد سبون (Spon) سأذكره الآن: «من دون كل أمراء المسيحية، لا واحد منهم يهابه الأتراك، مثلما يهابون التّزار (Zar) الأعظم لروسيا... وقد سمعتُ مَن يقول إلى بعض اليونانيين، ومن بينهم السيد مانو ـ مانّيا، تاجر بمدينة أرطا، رجل صاحب طرفة وصاحب علم في ذلك البلد، أنّ نبوءة تسري بينهم تقول إن إمبراطورية التركي ستنهار على أيدي شعب كريسوجينوس

---

(1) *Apud* Besoldum, *ibidem*, p. 47.

(2) *Voyez* Wolfius, *Lect. Memorab.*, tom. II, p. 803.

(٣) إنه سليم الثاني الذي حكم في ذلك الزمان.

(4) Wolfius, *Lect. Memorab.*, tom. II, p. 803.

(Chrysogenos)، يعني أشقر، والذي لا يمكن أن ينسب إلاّ إلى الروس الذين هم كلهم تقريباً شقرا»[١].

وقد تناولنا هذا الموضوع في أفكار حول المُذنّبات[٢]، بمناسبة لا أدري أي موروث تقليدي، أن الفرنسيين سيكون لهم شرف تحطيم مُلك الأتراك. انظروا إلى الملاحظة (F) من مقال ماريستس (MARESTS). أما نبوءة الحبشة فهي لا تشير إلاّ إلى مَلك مسيحي، تقع بلاده في الشمال: «وقد ذكر دُورِيت (Duret) في كتابه «تاريخ اللغات، ورقة ٥٧٥، نبوءة يثمّنها الحبشة، تنص على أن مكة والمدينة وبعض المدن الأخرى من العربية السعيدة ستحطّم وسيُذَرّ رماد محمد وكهنته. وسيقوم بهذا أحد الملوك المسيحيين المولود في منطقة شمالية، وسيحتل أيضاً مصر وفلسطين»[٣]. يُزعم أنّ كتاباً دُوّن بالعربية في شأن هذه النبوءة، قبل الاستيلاء على دمياط، وأن هذا الكتاب تم العثور عليه من طرف المسيحيين[٤].

ويليشيوس (Willichius)[٥] يروي أن الأتراك يجدون في حوليّاتهم، أن مُلك محمد سيبقى حتى مجيء الفتيان الشّقر «حتى يأتي الفتية الشقر، بمعنى الفتية الصّفر والبيض الآتين من الشمال، أصحاب الشعر الأبيض والأصفر». البعض يرى إنّهم السّويديّون، لكن أنطوان تُركواتو

---

(1) Spon, *Voyages*, tom. I, p. 270, *édition de Hollande.*

(٢) ص، ٧٨٣.

(3) Besoldus, *Consider. Legis et Sectae Sarecenorum*, p. 48.

(4) Voyez Hottinger, in *Thesauro Philologico.*

(5) In *Vitâ Mahometis*, p. 158, apud Schultetum, *Eccles. Muhammetana*, p. 22.

(A. Torquato)، منجّم شهير، ينسبها إلى مَلك المَجَر[١]. لن أتحدّث عن النبوءة التي كانت تسري أيّام حكم الإمبراطورة ثيودوره (Théodora)، التي تقول إن تحطيم العرب سيتمّ على أيدي المقدونيّين، والذي لهذا السبب جهّز الإمبراطور مونوماخ (Monomaque) جيشاً وبعثه إلى الشرق[٢].

لكن النتائج لم تُثبِت أبداً هذه النبوءة، ولا التعليقات على خُطب الإمبراطور سيفار (Sévère) أو على خطب الإمبراطور ليون (Léon) التي طُبعت في فرنسا مُرفقة بمجموعة من الصُّوَر، سنة ١٥٩٧. هذه التعليقات كانت قد تنبّأت بأن إمبراطورية العثمانيين ستنتهي في حكم السلطان سليم الثالث[٣]. أما تعليقات فيليب نيكولاي (Nicolaï) على سفر الرؤيا فلم تكن أسعد من ذلك. هذا القسّ البروتستانتي قد تنبّأ، وفق بعض كلمات القدّيس يوحنا، أنّ الإمبراطورية التركيّة ستنتهي[٤] سنة ١٦٧٠.

فولفيوس أدمَجَ في دروسه الشهيرة، نصّا عنوانه: **خطاب حول مستقبل الانتصار على الأتراك، من خلال النبوءات المقدسة، وتكهّنات أخرى، وعجائب، وعلامات جديدة مشتقة ممّا جاء به يوحنا المعمدان الناصري البريكسي**. وقد طُبع سنة ١٥٧٠. الكاتب يناقش العديد من

(1) Apud Leunclavium, in *fin. Epist.*, fol. 844, citante Schulteto, *ibid.* voyez l'article TORQUATO (Antoine), tom. XIV.

(2) Credrenus, p. 515, *apud* Schultetum, p. 22.

(3) Ibidem.

(4) *Idem, ibid*, p. 21.

التكهّنات المُستمدّة من مقاطع نبوءات الكتاب المقدس، ويجد أن، من أيّ جهة قَلّبَها وطبقا للحروف المُرَقّمة، فهي تُشير إلى خراب الأتراك، وبنفس الوسيلة سيُقام سلام عالمي حتى سنة ١٥٧٢، أو سنة ١٥٧٥. التكهنات الأخرى التي استقصاها، من قِبَل كُتّاب منذرين، إضافة إلى العلامات التي ظهرت في أبراج السماء، جعلته يستخلص أن إمبراطورية الأتراك وكل الإسلام هما على وشك الزّوال؛ وأنه لا يمكنهما النجاة منه، .وأنه يلمس تقريباً بالإصبع القرن الذهبي الذي سيُرسي على الأرض السلام العالمي.

بيسولدوس (Bésoldus) مُدهش في هذا الشأن[١]: يذكر رسالة نازاروس هذه وكتاب آخر كُتب سنة ١٤٨٠، وطبع في باريس[٢] حوالي ١٥٢٠. يُبشّر فيه المسيحيّين بمئات الانتصارات الباهرة، والتي لم تكن إلاّ أوهاما؛ ومع ذلك فهو يؤكد أن نهاية الإسلام قريبة: يعتمد على حقيقة أن العلوم لا ترى عندهم أي ازدهار كما كانت من قبل: «وهذه التكهّنات كلها، على الرغم من أنها في أعين العديد عبثية ومتعصّبة، فإن الظروف الزمنية والمكانية، أثبتت خطأها؛ ومع ذلك فإن البعض يؤكدون أن شريعة المسلمين قاربت على خرابها. الدليل على ذلك، فعلا، هو أن في وقتنا الحالي تراجعت عندهم العُلوم والتّحقيق والتّدقيق»[٣]. السيد كونيغ (Konig) يُعلمنا أن السيد باسير (Basire)،

(1) *Consider. Legis et Sectae Sarracenorum*, p. 48.

(2) *De futuris Christianorum Triumphis* in *Sarracenos*. L'auteur l'appelle Magister Johannes Viterbiensis.

(3) Besoldus, *Consider. Legis et Sectae Saracenorum*, p. 48.

قسّيس مُلحَق بقصر شارل الأول، ملك انجلترا، صرّح خلال مُرورِه من لايتسيك ذاهبا إلى لندن بعد إعادة تَنصيب شارل الثاني، أن حسب سفر الرؤيا سنشهد عن قريب حربا ضد الأتراك؛ وأننا في مرحلة العلامة السادسة (القارورة السادسة)؛ وأن الأتراك سيُحالفهم الحظّ في هذه الحرب، وأنهم سيَجتاحون مدينة روما؛ وبعد هذا الانتصار إمبراطوريّتهم سَتَنْهار وتَضمحلّ، وأن حكماء تلك الأمة يعتقدون ذلك[١]. وقد نُشر كتاب في باريس عام ١٦٨٦، ادمجت فيه كمّية من التّنبؤات القاتلة للشرقيين[٢]، كانت قد أطلِقَت من طرف الأب جواشيم، والقدّيس نرسيس، بطريك الأرمن، ومن القديس كاتال، اسقف مدينة تريتنو[٣]، ومن سانت ـ أنج (Saint-Ange) راهب كارميلي، ومن بيروبيوس (Bérobius) أصيل باتراس. المؤلف يدّعي بأن تكهّناته موجّهة إلى الملك المسيحي جداً، لِحَثّه على شنّ الحرب ضد العثمانيين.

لن أعيد ما قُلته في مكان آخر[٤]، فليطّلع عليه مَن رَغب في ذلك. أقول فقط إن في الوقت الذي يَصرخ فيه بعض المتنبئين: الويل، الويل، ضد القوّة المحمدية، هناك من وعدوها بِبَركَة كبيرة. وقد بثّ فلكيّو

(1) Konig, *Biblioth., vet., et nova*, p. 90, ex *epist. Lipsiâ scriptâ* die 24 august. 1661.

(2) Voyez le *Journal de Leipsic*, mois de février 1688, p. 81, dans l'*Extrait du Théâtre de la Turquie*, par le sieur Michel Fèvre.

(3) S. Catalii episcopi Tridentini. Act. Lips., ibid. Il eût fallu dire S. Cataldi episcopi Tarentini.

(4) Dans l'article HERLICIUS, tom. VIII, p. 97, remarque (F).

طليطلة، في القرن الثالث عشر، نبوءة تنص على أن في غضون سبع سنوات ستثار نزاعات بين العرب، وستكون هي السبب في تخلّيهم عن دينهم واعتناق الإنجيل. لكن لاهوتيّاً من فرانيكر (Franeker) أثبت لكُومَانيوس (Coménius) خطأ هذه النبوءة بالاستشهاد بأطروحة أطلقها ساموبل ديماريتس (Desmarets) قال فيها إنه من السهل البرهنة، عن طريق الكتاب المقدس، على أن الأتراك والتّتار لن يعتنقوا المسيحية إطلاقاً؛ وإنما عن طريق انضمامهم إلى بقايا المسيح الدجال، سيَعملون بالأحرى على تدمير المسيحية: لكن الله بتدخّل منه سيمنعهم من ذلك، وسيتمّ نسفهم من أعلى إلى أسفل في المجيء الثاني ليسوع المسيح.

ليس حساب الألفيّين الذي يجب أن يحاربه ساموبل ديمارتس لكن زعمهم بأن الأتراك سيعتنقون المسيحية. فَلنُورِد ما يخصّ فلكيّي طليطلة: «بما أن تكهنات فلكيّي طليطلة لم تؤيدها الأحداث، والتي نشرت منذ ٤٠٠ سنة، كما جاء عند ويندوفيرو (Wendovero) في ملحق ماتيو باريس، طبعة لندن سنة ١٦٣٢، والتي بحسبها، بعد مرور سبع سنوات من تلك النبوءة، ستدبّ بين العرب الشكوك حول دينهم وأنهم سيتخلون عن إسلامهم وسيُصبحون في المستقبل شعبا واحدا مع المسيحيين؛ هكذا لا يجب علينا أن نُغَذّي أملا جديدا في تمسيح الأتراك، والذي هو غير موعود به اطلاقا في كلام الله»[1]. هناك أيضاً أناس يتنبؤون بفتوحات للأتراك: سيَصلون بغزواتهم، يقولون، حتى الفلاندر (Flandre) وبيكاردي (Picardie). اقرأوا ما سأنقله الآن. سأضع

---

(1) Maresius, *Disp. III*, th. XVIII, apud Arnoldum, *Discurs., theolog., contra Comenium*, P. 91, 92.

في الحاشية استشهادات الكاتب دون تحوير يذكر: «رغم أن الكثيرين لا يعترفون بنبوءة انحطاط الإمبراطورية التركية، فهم يترقّبون في البداية اقتحام، أو بالأحرى قيادة الجنود الأتراك أبعد من كولونيا، والاندفاع وصولاً(*١)(١) إلى بيكاردي، فلاندر وبرابانت(*٢)(٢) وتقريبا إلى كل مناطق الشمال(*٣)(٣)؛ ولكننا نحن ليس فقط عن طريق التكهّنات بل علامات أخرى أيضاً تجعلنا نتأكد من قرب شيخوخة (senectute) [انهيار] إمبراطورية الأتراك»(٤). تجدون أشياء إضافية في الملاحظة (B) من مقال توركواتو (TORQUATO) أنطوان.

إذا أردنا أن نُرجع كل هذه النبوءات التهديديّة إلى سبب واحد، سنكون مخطئين. فالرغبة العارمة في مواساة النفس بالرجاء في تدمير مضطهِدٍ وحشيّ، تجعل من السّهل العثور على هذا التدمير في نبوءات الكتاب المقدس، أو في مصدر آخر. هاهنا إذن نحن إزاء أناس يتنبؤون بسذاجة وبوَهْم. الرغبة العارمة في عزاء الشعوب وفي تبديد مُخاوِفهم، تُجبر بعض النّاس على افتراض أن الكِتاب المقدس والآيات العديدة والعلامات الأخرى تُنذِر بقُرب نهاية القوة التي يهابونها. لدينا هنا إذن أناس يتنبؤون بدافع السياسة. أولئك الذين يفعلونه بُغية بث روح الشجاعة في العساكر المُجهّزة، هم أنبياء من نفس الفصيلة. هناك من

(1) Methodius, apud Wolf., *Rer., memor.*, T. 2. A. 1571.

(2) Claromontanus, ap. wolf., *l.* I.

(3) Secundum prophetiam Hebroeam à Bemecho Patarensi episcopo in latinum translatam. Notez que dans Wolfius, p., m. 886, cet auteur est appelé Bémé-chobus.

(4) Schulterus, in *Ecclesiâ Muhammedanâ*, p. 21.

يقوم بها لإثارة الانتفاضات في بلاد العدوّ؛ مثلا لغرض تحريك اليونانيين الذين يعترفون بالتركي كحاكمهم، ودفعهم لحمل السلاح ضد سيّدهم. هؤلاء ينتمون إلىٰ فصيلة أخرى، يجب تسميتهم بأنبياء الفتنة. ضعوهم أنتم في الفصيلة التي تريدون، لا يهمّني.

القديس أوغسطينوس حكى عن الوثنيين الذين نشروا نبوءة تتكهّن باندثار المسيحية بعد أن تدوم ثلاث مائة وخمس وستين سنة: «لقد تخيّلوا لا أدري أي أبيات باليونانية سُمِعَت عند استشارة أحد العرافين. وفيها اعتبروا المسيح بريء من جرم هذا التّدنيس المزعوم، ولكنهم يُضيفون أن بُطرس قام بأعمال سحريّة لكي يواصل الناس في تقديس اسم المسيح لثلاث مائة وستة وخمسين سنة أخرى؛ وبعدها، بانقضاء عدد السنين هذه، فإن المسيحية ستشهد نهايتها لا محالة»[1]. القديس أوغسطينوس يرى أنه بحساب هذه الثلاث مائة وخمس وستين سنة منذ قيام يسوع المسيح، فإنها كانت ستنقضي حتما سَنةً قبل أن تتقبّل الوثنية، إذا جاز التعبير، الضّربة القاضية عن طريق تحطيم معابدها: «السنة الموالية، تحت قنصلية مانليو تيودور، وفقاً لاستجابة الشياطين أو هراء الناس الذين زعموا أنه لن تبقى هناك ديانة مسيحية، لم يكن ضرورياً البحث عما حدث في بقاع العالم الأخرى. في غضون ذلك، وهذا الأمر نعرفه جيّداً، وبالتحديد في مدينة قرطاج الشهيرة اللامعة في إفريقية، حيث أن غاودانسيوس (Gaudentius) وجوفيوس (Jovius) قائدا سرية الإمبراطور أونوريوس (Onorius) دمّرا، في ١٩ مارس، معابد

---

(1) Augustinus, *De Civitat. Dei*, lib. XVIII, cap. LIII. Voyez M. de Maux, *Explication de l'Apocalypse*, chap. XIX, p. 231, édition de Hollande.

الآلهة الكاذبة وهشّما تماثيلها»[1]. القديس أوغسطينوس يلاحظ أن العديد من الوثنيين تحوّلوا إلى المسيحية بتفطّنهم لكذب هذه النبوءة. أما بخصوص غرض أولئك الذين أفشوها، انظروا ما سأذكره من بارونيوس (Baronius)[2].

بعض الذين تكهّنوا للأتراك بفتوحات كبرى كانوا مأخوذين بالكُره للعائلة المالكة في النّمسا، وهذا لا يخلو من أمرين: إمّا أن يكون هذا الكره قد جعلهم متعصّبين، وإما أنهم تظاهروا بامتلاكهم رؤيا صادقة. لكن البعض الآخر لم يكونوا مدفوعين إلاّ بالنّسق الذي تصوّروه عن نبوءات سفر الرؤيا، عن يأجوج ومأجوج.. الخ. قيل لي منذ ذلك الحين بعض الأشياء: ١. إن قسّيساً بروتستانتياً من أمستردام كان قد ألقى خطبة زمن محاصرة فيينا، سنة ١٦٨٣، وقال إن الأتراك سيجتاحون المدينة. وقد اعتمد على بعض المقاطع من الكتاب المقدس؛ ٢. لكن رَفْعَ الحِصار سبّب له حزنا شديدا أدى إلى موته. ليس لأنه يتمنّى، كما فعل درابيسيوس (Drabicius)، أن يَتقدّم الأتراك إلى عمق ألمانيا؛ بل لأنه استاء من وُقُوعه في الخطأ.

مهما كان الأمر، يمكننا أن نَستنتج أنّ أولئك الذين يتطفّلون بتكهّناتهم لكي يكشفوا لنا مستقبل الأتراك، يَهدرون وقتهم: حينما

(1) Idem, August., *ibidem*, cap. LIV.

(٢) «إن مجد كنيسة المسيح شهد ازدهاراً كبيراً، بحيث إنه لم يبق للوثنيين، الذين كانوا شاهدين على حالة ازدهار كنيسة المسيحيين، لعزاء أنفسهم، نوعاً ما، على نموّها الذين تقبّلوه بيأس وحسد، إلاّ صياغة نبوءة جديدة، مروجين إياها على شكل أبيات يونانية، والتي تتكهّن بأن الديانة المسيحية ستدوم ٣٦٥ سنة، انقضت منها تقريباً ٣٣١ سنة». (Baronius, *ad ann.* 313, num. 17, p. m. 130)

هدّدوهم بالانهيار، انتصروا؛ حينما بشّروهم بالفتوحات، خسروا معارك وأراضي[1] كما رأيناه منذ سنة ١٦٨٣. لكن لنلاحظ أن في زمن درابيسيوس نفسه، كان هناك أناس في هولاندا تنبّؤوا بأن الأتراك سيُسحقون. وقد تمّ نشر في لايد (Leyde)، سنة ١٦٦٤، كتابين مختلفين. الأول عنوانه: **في هجوم التتار: رسالة وجيزة**[2]؛ والثاني: **نصائح إلى المسيحيين تقترح خطة لتحريرهم ولسحق الأتراك**. في الكتاب الأول، زُعم أن هولاندا مهدّدة باجتياحات التتار إذا لم تُوفّر كمّية كبيرة من المال لتجهيز قوّات ضرورية لمُحاربة الأتراك. في الكتاب الثاني يوعد باحتلال الإمبراطورية التركية، على شرط أن يتمّ تجهيز عدد كبير من الرجال والعتاد، وأن يُحدّد بأي طريقة سيتمّ تقسيم تَرِكة هذا الاحتلال.

(HH) الأرز والورد ينبعان من عَرَقِه.] إليكم كلمات عالمين مارونيّين «وكما يجدّف أتباع محمد المخرّفون، وهو أن من عرق محمد برزت أشياء قبل أن يظهر للعالم - قبل أن يلوّث العالم، أقول - بينما كان يطوف بعرش الله في الجنة. الله التفت ونظر إليه، فعَرِق محمد من الخجل، فمسح عرقه بيده، فسقطت خارج الجنة ستة قطرات، انبعثت من واحدة وردة، الأخرى الأرز، والأربعة الباقيات صحابة محمد الأربعة»[3].

هذا يتجاوز الرؤى الأكثر عبثيّة لصانعي الخرافات المسيحيّين.

---

(1) Voyez l'article KOTTERUS, tom. VIII, p. 594-600, remarque (A) et (G).

(2) La version flamande est è regione.

(3) Gabr. Sionita et Jo. Esronita, *De nonullis Oriental. Urbibus*, p. 52.

محمّد، يقول أتباعه، كان يطوف بعرش الله في الجنة، قبل أن يظهر للبشرية. الله التفتَ ونظر إليه: محمد خجل خجلاً شديداً إلى درجة أنه تصبّب عرقا، فقام بسَلْتِ عرقه بيده، فنزلت ست قطرات خارج الجنة، واحدة منها أنبتت الوردة، أخرى الأرز، الأربعة الباقيات شكلت صحابة النبي. «ماذا تقول سيّدي، عن رؤية العرب - الكلام لبالزاك - الذين انتزعوا الوردة من الآلهة فينوس لكي يمنحوها إلى النبي محمد، والذين يقولون (إنه بوسبيكيوس الذي يورده في أخباره) وأن الوردات الأولى نبتت من عرق هذا النبي الكبير؟ ألا تعجبون من كرونولوجيتهم، التي لا تريد أن يكون هناك ورود في العالم، قبل إمبراطورية هرقل؟»[١].

(II) الملك جبرائيل علمه كيفيّة إعداد مَرق يمنحه قوى كبرى للتمتّع بالنساء.] يتباهى بأنه تعلّم من الملك جبريل أن فضيلة هذا المرق هي تقوية الجماع[٢]. حينما أكل منه مرّة بأمر من الملك، مُنِحَ قوّة جعلته يصارع أربعين رجلا؛ في مناسبة أخرى جامع أربعين امرأة دون كَلَل «محمد... يؤكّد أنه تعلّم صناعة هذا المرق من الملك جبرائيل، وصلوحيته يشهد بها الملاك نفسه، حيث تتمثل في تعزيز الصُلب (*ut renes corroboret*). وحينما أشار عليه الملك مرة بالأكل منه استطاع أن

(1) Balzac, *Entretien V, chap. II*, p., m. 87. Conférez la remarque (DD) de l'article JUNON, tom. VIII, p. 525.

(٢) هذه مكوناته: «من عادة العرب أن يأكلوا مرقا ما يسمونه هريسة، من الحنطة المطبوخة بعد تجفيفها تحت الشمس، ثم يتم حفظها في وعاء بعد تطهيرها، وفي الأخير يتم غليها مع لحم سمين حتى يذوب اللحم، والذي هو بالأكيد غير مقرف لـــلـــطـــعـــم». Gabr. Sionita et Jo. Esronita, *De nonullis Oriental.* (*Urbibus*, p. 52.

يصرع في ليلة واحدة أربعين رجلا، مرة أخرى جامع أربعين امرأة دون تعب. بالتأكيد هذه مجرّد خرافات عجائز هاذية، أو افتراءات بعض الحاقدين على الإسلام حسب افتراضنا، إلاّ أننا نرى أن كل هذه الأشياء مذكورة بلغة عربية فصيحة تحت باب ملذات وفوائد بعض الأطعمة عقده الكاتب المذكور أعلاه[1]، وهو فقيه خبير ومُخلص لمحمّد»[2].

لدينا هنا مؤلف حاذق بين المسلمين، يروي كل هذه الشناعات عن نبيّه: لا يجب علينا إذن أن نظن أنّ المسيحيين أو اليهود قد اختلقوا تلك الحكايات لتشويه صورة هذا الكذاب؛ وهكذا، حتى وإن لم نقرأ في القرآن أن متعة الجماع تدوم كل مرة سبعين سنة كاملة، لا يجب مع ذلك الشك في أنها مشتقّة من التراث المحمدي. لكن، لكي نوفّر الفرصة لكل واحد الحُكم على هذه الأشياء بصورة أفضل، يجب علي أن أورد مقطعا يُعلمنا بأن السيد بوكوك، رجل متضلّع في قراءة المؤلفين المسلمين، لم يتحدّث أبداً عن هذه الأشياء. ها هي الملاحظة من السيد بيسبيير على ما قالة السيد ريكو[3] من أن هذا النبي الكذاب يَعِد بجنّة فيها نسوة جميلات، حيث التمتع بهن يعطي لذة مشطّة... وتدوم سبعين سنة كاملة دون انقطاع «القرآن لا يتحدّث في أي موضع عن مدّة هذه الملذات. بوديه (Baudier) لا يجد صعوبة في تمديده إلى خمسين سنة، صفحة ٦٦١ من تاريخ ديانة الأتراك. هذا ما استمدّه من فيجانار

(1) *C'est-à-dire, si je ne me trompe*, Mohamedes Ben Casem, *duquel ils citent*, pag. 2, Hortus rerum delectabilium.

(2) Gabr. Sionita et Jo. Esronita, *De nonullis Oriental. Urbibus*, ibid.

(٣) ريكو، حالة الإمبراطورية العثمانية، ص، ٣٢٢.

(Vigenère)، صفحة ٢٠٨ من لوحات على شالكونديل، أو ما أخذاه كلاهما من جون أندريه، ص، ٧٢، أين يقول نفس الشيء.

لا أستبعد أنهم استنسخوها من مواضع لا تحصى، كما فعلوا، خصوصا حول ملذات الجنة، فقد نقلوا حرفيا أربع أو خمس صفحات؛ لكن ما لا أستسيغه هو أن لا هذا ولا ذاك يَذْكُر في الهامش واحدا من المصادر التي نقلوا منها. أنا لا أدري هل أنّ السُنّة تحدّثت عن الخمسين سنة، كما يؤكد جون اندريه؛ لكن بوكوك، الذي كان دقيقا جداً في وصف كل ما قاله المسلمون عن ملذات الجنة، لا يتحدث أبداً عن الخمسين سنة لجون أندريه، لبوديه ولفيجانار، ولا عن السبعين سنة لمؤلفنا؛ فهو يقول فقط أن هؤلاء الكفرة يؤكدون أنه سيكون هناك مائة درجة من المتعة في الجنة، وأن أدناها ستكون من القوة بحيث إن المؤمنين لكي يتحملوها دون أن يُهلكوا، سيَمنَح الله لكل واحد منهم قوّة مائة رجل (*Kouat miat ragiol*)»[1].

فلنتعجّب هنا من الضّعف الإنساني. محمد، ممارسا ومعلّما لأشدّ أنواع القاذورات، استطاع رغم كل ذلك أن يجرّ عدداً كبيراً من الناس للاعتقاد في أن الله بعثه بالدين الحق. ألا تدحض حياته بقوّة هذا الادعاء الكاذب؟ ذلك لأن حسب ملاحظة ابن ميمون، الطبع الأساسي للنبيّ الحق هو احتقار ملذات الحواسّ، وخصوصا ملذات ما نسميه بالجنس: «قمين في هذا أن نستشهد بما قاله ابن ميمون في دلالة الحائرين، الكتاب الثاني، الفصل ٤٠، عن كيفية معرفة الأنبياء الكذابين من الصادقين: «وجه امتحان ذلك هو اعتبار كمال ذلك الشخص وتَعقّب

---

(1) Bespier, *Remarques curieuses*, p. 625.

أفعاله، وتأمّل سيرته، وأكبر علاماته اطّراح اللذات البدنية والتّهاون بها. فإن هذا أول درجات أهل العلم، فناهيك الأنبياء وبخاصة الحاسّة التي هي عار علينا، كما ذكر أرسطو، ولا سيّما قذارة النكاح منها. ولذلك فضح الله بها كل مُدّعٍ ليتبيّن الحق للمحققين، ولا يضلّوا ولا يغلطوا»»[1].

لا يقال لي أبداً بأن لا أحد قد انخدع، وأن أولئك الذين انضمّوا إلى محمد، لم يفعلوه إلاّ بنوع من حبّ للذات وبوعي منهم بأكاذيبه. سيكون ادعاء غير قابل للتصديق. أغلب أتباعه رفضوا خبر موته واعتبروه تجديفاً، إيماناً منهم بأن ذلك لا يمكن أن يتوافق مع مهمّته السماوية، وكان من الواجب، لكشفهم الحقيقة، البرهنة لهم عن طريق القرآن أنه سيموت[2]. لقد افتتنوا إذن بكلامه. لكن، إذا صادف واعتقد أحدهم مرة في أن شخصاً ما هو نبيّ أو خادم عظيم لله، فإنه بالأحرى سيعتقد أن الجرائم هي ليست بجرائم حينما يقترفها، ولا يَقتنع بأنه اقترف جرما أبداً. هذا هو التّحفّظ الأحمق للكثير من أصحاب النفوس الصغيرة. ألم يقُل سينيكا نفسه إنه من السهل البرهنة على أن السّكر هو أمر محمود، بدل الاعتراف بأن كاتون (Caton) اقترف خطيئة وهو سكران[3]؟

أتباع محمد يقولون نفس الشيء في قلوبهم: من الأفضل الاعتقاد

---

(1) Eduardus Pocockius, *Notis in Specimen Historiae Arabum*, p. 181.

(2) Voyez Pocock, *ibid*, p. 178, 180.

(٣) «لقد عيب على كاتون سُكره: ولكن مهما كان الشخص الذي عاب عليه، يجعله موافقا للفضيلة حتى هذه الخطيئة، عوض أن يعتبر كاتون رجلاً ماجناً (مجرماً)». سينيكا، في راحة النفس، فصل ١٧ ـ ٢.

في أن الشَبق الجنسي المُفرط أمر محمود، بما أن نبيّنا العظيم كان عُرضة له، بدل الاعتقاد في أنه ليس بنبيّ عظيم. كل يوم نلاحظ تطبيقات لهذا الحكم المسبق: هل صادف وحاز رجل ما على شهرة أنه شديد التّقوى ومُنَافحٌ كبير عن الارثودكسية، هل أبلى البلاء الحسن في حروبه ضد الهرطقة، هجوميًا أو دفاعيا، ستجدون أكثر من نِصف العالم حَذرا إزاءه إلى درجة أنه لا يمكنكم حَمْل الناس على الاقرار بأنه أخطأ لاقترافه أعمالا كانوا سيُدينونها لو اقترفها شخص آخر. القدّيس بولس قال فقط إن المرأة الكافرة ستنال القداسة في الزوج المؤمن[1]؛ لكنه لو تكلّمَ بحسب مذاق هؤلاء الناس، لقال إن كل ما ينتمي إلى الرجل المؤمن، إلى الرجل الأرثودوكسي، وكل ما يفعله، هو مقدّس فيه.

(KK) ظَهَرَ بعده العديد من الأنبياء الكذابين.] أتذكّر تصدير موعظة للسيد دايه (Daillé): فهو يجري على الفكرة التي مفادها أنه كلما أظهر الله للناس حقيقته، كلما أثار الشيطان لاهوتيّين كذابين يُعلنون الكفر. في عصر الرّسل، أحدث الشيطان هراطقة مثل قيرينثوس، إيبون، الخ، وفي زمن الاصلاح البروتستانتي، جون لايد، دافيد جورج، سِيرفيت وسُوسِين. هدف الشيطان هو إعاقة تقدّم الحقيقة؛ لأنه كان من الطبيعي الاعتقاد بأن اليهود والوثنيّين سيحتقرون الإنجيل، حالما يَرون بُروز المذاهب العديدة بين أولئك الذين يُبشّرون به. وبالمثل فإن هناك سببا للاعتقاد أن الكاثوليك سيحتقرون ويسبّون البروتستانت، حالما يرون لوثر، زفينغلي، مونتسر، كالفين، يسيرون في شعاب مختلفة، وقيام خلافات ضد العديد من رؤساء المذاهب، الذين، على هديهم، خرجوا

(١) كورنثوس الأولى، ٧، ١٤ «والزوجة غير المؤمنة قد تقدّست في زوجها».

من الطائفة الرومانية. في هذه المسألة يُثار اعتراضان: ١. لو كان هؤلاء الناس بالفعل مُلهَمين من طرف الله، لتكلّموا نفس اللغة؛ ٢. في حالة ما إذا كان من الواجب ترك العقيدة القديمة، ما الحزب الذي نختاره بين الفِرق الجديدة؟ مِن الأفضل بمكان أن نَبقى حيث كنّا، عوض أن نناقش إذا كانت واحدة منها صحيحة، وما هي بالتحديد. الحدث لا يؤكد هذه الملابسات (الأوضاع) حسب كل امتدادها؛ ذلك لأنه رغم أننا لا نستطيع نَفي أنّ تعدّد المعلّمين الكذبة [اللاهوتيين المزيفين] ـ الذين انتصبوا في القرن الأوّل والذين شكلوا أحزابا عديدة في حضن الإنجيل الوليد ـ لم يحدثوا ضررا كبيراً للقضية العادلة، بينما الشيطان أحدث كل الشر التي استطاع أن يأملها. المذهب التشكيكي (البِيرّونيّة) اكتسب من هذا الاعتراض القليل جداً من المنفعة، وقد قَدّمتُ الأسباب(١).

يمكننا أن نطبّق هذه الملاحظة على زمن لوثر وكالفين. هذان المُصلحان الكبيران ما كانا ليَحُوزا على التقدّم الذي حازا عليه لو أنهما كانا مُتّحِديْن في نفس الأفكار، أو لو كان كل الذين حاربوا الكنيسة استعملوا نفس اللهجة. إن افتراقهم كان سببا في مُكوث العديد من الأشخاص على مذهب البابوية: ومع ذلك فإن هذا لم يَمنع من أن تَنموَ الديانة البروتستانتية في وقت قصير، وتَحوز على ثقل دائم. مهما كان الأمر، كل العالم يمكن أن يعرف أن الشيطان يسير بعناية وراء مصلحته عندما يَعيق تقدّم ديانة جديدة، كما يفترض السيد دايبه: لكن ليس من السهل تصوّر أنه حالما استحثّ محمداً لإرساء دين كاذب، عارضه بنفس العوائق التي وضعها ضد رُسل المسيح. من أين جاء إذن، أن

(1) Dans l'article de LUTHER, tom. IX, p. 274, remarque (CC).

أنبياء كذابين، رُسل الشيطان، اجتهدوا لوأد المحمدية في المهد؟ من أين جاء أن محمداً كان عنده أتباع يتباهون بنزول الوحي عليهم مثله[1]؟ من أين جاء أن مسيلمة تابعه، تخلّى عنه، لكي يكوّن فرقة لوحده[2]؟ كيف استطاع أسود [العبسي]، طليحة [بن خويلد]، المتنبّي، أن ينتصبوا كأنبياء، ويجلبوا لصفّهم عدداً غفيرا من الناس[3]؟

ليس من الهيّن تفسير هذه الظواهر إذا لم نفترض أنّ الانقسام ليس أقل شدّة بين ملائكة الشرّ كما بين الإنسانية، أو أن البَشر، دون تحريض الشيطان يعملون على تأسيس طوائف دينية زائفة. رؤساء المذاهب الذين ذكرتُ عاملوا محمداً على أنه نبي كذاب؛ لكن بعد موته ظهر أخرون دون أن يضعوا موضع شك سلطته، تنازعوا في من له الأحقّية في تفسير القرآن. الطائفتان الكبيرتان اللتان تَشكّلتا بداية، تلك التابعة لعليّ وتلك لعمر، بَاقِيَتان إلى اليوم. ألا يعمل هذا على خراب المحمّدية؟ هل هذه هي مصلحة الشيطان؟

كيفما بَدا حجم هذه الصّعوبة، يمكننا تقديم أجوبة مختلفة؛ يمكننا القول إن الشيطان لا يبالي أن يُختَرق نبي كاذب من طرف أنبياء كاذبين، وأن يَغوي كل واحد من هؤلاء أشياع مُنافسه: الشيطان لا يخسر شيئا؛ فهم مَاكِثون في قَبْضَته سواء اتّبعوا محمداً أو اتّبعوا مُسيلمة أو المتنبّي. فالصراعات، والحروب، والاضطرابات من أي نوع كانت، ستثيرها حتما هذه الانقسامات، وهي المشهد الأكثر تَسْلية

(١) انظر: هوتنغر، تاريخ الشرق، ص، ٢٥٨.
(٢) نفسه.
(٣) نفسه، ص، ٢٥٩.

لعدوّ الجنس البشري، بدل السّير الهادئ والسّعيد لطائفة واحدة كاذبة. وبَعد: إن هذا الشيء قادر جداً على أن يُصعّد من كبرياء روحٍ طَموح، إذا برهن على أنه قادر على إرساء المحمّدية على الرغم من وجود ألف عائق. ألا يمكنه أن يأمل في أنه إذا منَحَ انتعاشا باهرا إلى هذه الطائفة، حتى وإن كانت مُحارَبَة منذ ولادتها من طرف طوائف أخرى، سيُضْفيها علامة إلهية، وهكذا سيُصبح قردا مُحاكياً لِله، الذي لم يُظهر قوة حفظه للإنجيل إلاّ بمنع التأثيرات السّيئة للهرطقة والانقسامات للقرن الأوّل؟

(LL) **بعض الكتّاب العرب... يتباهون بأنهم قرؤوا نُسَخا من الإنجيل، تحتوي أشياء تخصّ محمد قام المسيحيون بفسخها.]** الأكثر ارتيابا مُحَطّمون حينما يرون كتّابا مُتبصّرين يقولون أشياء غائرة في الفحص العميق للتفاصيل، كما لو أنهم شاهدوها بأعينهم. من المفيد إذن ايضاح، عن طريق أمثلة بارزة، كيف أن هذا النوع من التصريحات غالباً ما يكون وهميّا. ما المثال الأبرز الذي يمكنني أن أسوقه إلاّ ما سأذكره الآن؟ سنرى فيه رجلاً مسلماً يؤكد أن مسيحياً أراه نسخة من الإنجيل تحتوي الكثير من الاشارات الواضحة والدقيقة التي تخصّ محمداً، وأنه لم تبق في العالم أجمع إلاّ نسخة واحدة مماثلة لهذه: «من بين أسماء هذا الكذاب المُجَدِّف، يعدّون اسم الفارقليط، حسب سلطة الجنّابي، أضف إلى ذلك أنهم بكل سهولة يُقنعون أنفسهم أنه، قبل تحريف الإنجيل من طرف المسيحيين، كان قد ذكره صراحة؛ وأن هذا الأمر يشهد به المسيحيون أنفسهم، حسب قول الكاتب المذكور أعلاه، وقد علم محمد السلانشي من قسيس كبير ذي سِيط بين المسيحيين، أنه لا توجد إلاّ نسختين غير محرفتين من الإنجيل، واحدة

بحوزته هو، والأخرى في باريس؛ وأنه قد قرأ أمامهم العديد من الأشياء من نسخته والتي بكل وضوح تحكي عن محمد»[١].

(MM) بعض الناس يقولون إنّ محمداً صرّح بأن ثلث القرآن فقط صحيح.] الأب جوسيف دي سانتا ماريا (J. de Sainte-Marie)، راهب كرملي حَافٍ، مُبشِّر زسولي في مملكة مالابار، يؤكد[٢] أن سكان مَسْكات يتباهون بأنهم الأكثر ورعا واتّباعا لشريعة محمد، ويزعمون أن محمداً صرّح بأن مِن جُملة الاثني عشر ألف كلمة الموجودة في القرآن، ليس هناك إلاّ أربعة آلاف صحيحة. حينما يُدحَضون في نقطة من النّقاط، ولا يعرفون كيف يدافعون عن أنفسهم، فإنهم يَضَعُونها في عداد الثمانية آلاف المغلوطة. هذه حقاً طريقة جدّ مريحة لكي يَهرب أحدهم من مجابهة الخصم.

(NN) التحوّلات الطارئة على روحه النبوية تستجيب لتحوّلات مصالحه الخاصة.] لِنَستخدم في هذه النقطة كلمات السيد بريدو: «كل قرآنه تقريباً هو بهذه الصيغة(*)[٣]: مُشَكّل لكي يُجيب عن قضيّة خاصة به، حسب ما يُمليه الظرف الراهن. إذا كان هناك شيء جديد يجب إقامته؛ اعتراضٌ ضده أو ضد دينه ينبغي الإجابة عنه؛ صعوبة يجب حلّها؛ استياء بين الناس يجب استرضاؤه؛ فضيحة يجب إزالتها؛ أو شيء آخر يجب فعله لصالحه. فهو يلجأ عادة إلى الملك جبريل

---

(1) Pocockius, in *Specim. Histor. Arabum*, p. 185, 186.

(2) Dans le livre intitulé: *Prima Speditione all'Indie Orientali*, imprimé à Rome. Le *Journal d'Italie*, du 31 mars 1668, en fait mention.

(3) (*) *Richardi Confutatio*, c. 12.

لاستمداد وحي جديد، وفورا يُدمج في قرآنه تلك الإضافات المناسبة للاستجابة للأهداف التي قررها سابقاً. كل القرآن تقريباً مؤلّف في ظروف من هذا النوع، لكي يولّد في حزبه المفعول الذي يرومه. وكل المفسّرين يُقِرّون صراحة بهذا الأمر عارضين بدقة الأسباب التي من أجلها أنزل إليهم كل فصل من السماء. لكن هذا كان سبباً في توليد تناقضات دخلت بوفرة في هذا الكتاب. ذلك لأنه كلّما تغيّرت أحوال وأغراض هذا الكذاب، كلما وجد نفسه مُجبراً على تغيير وَحْيه المزعوم، وهو أمر معلوم جداً من قِبَل أتباع طائفته، بحيث إنهم يعترفون كلهم أنه صحيح. ولهذا السبب فإنه كلّما كانت تلك التناقضات من القوة إلى درجة أنهم لا يقدرون على انقاذها، فهم يَطلبون أن نُلغي واحدة من تلك المواضع المتناقضة. وهم يُحْصُون في كامل القرآن، أكثر من ١٥٠ سورة منسوخة(*)[١]، وهذه هي الذريعة المُثلى التي يتشبّثون بها لإنقاذه من التناقضات والتّضاربات. لكنهم في هذا يَكشِفون، بجدّ، عن خفّة وتهافت ذلك الشخص الذي ألّفه»[٢].

هذا البرهان على كذب محمد متينٌ جدّا: كنت قد تكلمت عنه أعلاه[٣]، لكن يجب هنا أن أضيف أنه سيُعطَى مدى أبعد إذا ما أردنا استعماله دون استثناء ضد كل مُؤوّلي سفر الرؤيا الذين يُغيّرون من افتراضاتهم كلّما تتغيّرت الظروف العامة وأخذت منعرجا مختلفاً[٤]. ربّما

(1) (*) Johannes Andreas Guadagnol., *Tract.* 2, c. 7, sect. 3.

(2) Prideaux, *Vie de Mahomet*, p. 155.

(٣) في الملاحظة (T).

(4) Voyer la *Cabale Chimérique*, à la page 89 de la seconde édition.

أحياناً ليس هناك إلا التعصب في تقلّبات هؤلاء الناس، وبحكم كونهم غير قادرين على التفطّن إلى سوء حالة أدمغتهم، فهم لا يَقلّون حُسن نيّة حينما يتغيّرون، منه حينما لا يتغيّرون. فلنستعمل تمييزا: نقول فقط إن أولئك الذين يُغيّرون منظومتهم الأبوكاليبتية حسب أخبار الجرائد، ودائما طبقا للهدف العام لكتاباتهم، يَنشرون أكاذيب إما دون وعي، أو بوعي تامّ منهم. تصرّفهم هو غالباً ما يكون زائفا، لكن ليس دائما.

(OO) كان غيورا بصورة مُشطّة، لكن هذا لم يمنعه من أن يتحلى بالصبر إزاء خيانات زوجته الأحب إليه.] «بما أنه أصبح بصورة وحشيّة عبدا لحب النساء، كان أيضاً غيورا للغاية على اللاتي تزوجهنّ. وهكذا لكي يُثنيهنّ عما كان يخشاه[(١)]، هدّدهنّ بعذاب أشدّ من عذاب النساء الأخريات، سواء في هذه الدنيا أو في العالم الآخر، في حالة ما إذا أقْدَمن على خيانته. وحينما كان بعض أتباعه يتردّدون كثيراً على منزله، ويتحدثون مع احدى زوجاته، غضب غضبا شديدا إلى حد أنه لكي يمنع من حدوث هذا الأمر مرة أخرى، تظاهر بأنه تَقبّل من الله هذه الآيات من القرآن[(٢)]، أين يقول لهم إنهم لا يجب أن يدخلوا بيت النبي دون إذن منه، وأنهم إذا دعوا للغداء معه، يجب أن يغادروا فور الانتهاء، ودون الدخول في حوار مع زوجاته؛ وأنه رغم أن النبي يخجل من أن يأمرهم بالانصراف، فإن الله لا يخجل من أن يقول لهم الحقيقة.

وفي نفس الفصل [السورة] يحظر على نسائه الحديث مع أي رجل، ما لم تكُنّ متّشحات بالحجاب. أخيراً حَمَل هذه الغيرة إلى قبره. ذلك

---

(١) سورة الأحزاب، ٢٩.

(٢) سورة الأحزاب، ٥٢.

لأنه غير قادر على تقبّل فكرة أن يَقتَرِنَ أي رجل بزوجاته، حتى بعد موته[١]، وقد مَنع منعا باتا أتباعه كافة أن يذهبوا إليهن ما دُمْن على قيد الحياة. وفي الوقت الذي تكون فيه كل النساء المطلقات أو الأرامل لديهن الحرية في التزوج من جديد، فإن أزواجه كلّهن وجَدْنَ أنفسهنّ مُستثنَاة من هذا الامتياز. لذلك فإن كل اللواتي تركهنّ بعد موته[*][٢]، بَقَيْن في حالة ترمّل، رغم أن بينهن شابّات، مثل عائشة خصوصا، والتي لم يكن لديها مِن العُمر في تلك الفترة إلاّ عشرين سنة، ثم عاشت بعده أكثر من أربعين سنة: وهذا ما يُعتبر، في ذلك البلد الساخن، سِجناً وَجَدْن أنفسهنّ فيه مُقيّدات بقسوة»[٣].

ترون في كلمات السيد بريدو، أن نفس المرأة التي سمّيناها في الأسفل (Aaisce)[٤] [عائشة]، تسمّى هنا (Ayesha). إن الكاتِبَين اللذين ذكرتهما في ذلك الموضع عبّرا بطريق خاطئة: لقد قالا إن محمداً دُفن في قبر عائشة، ولكن بما أنها عَمَّرت أطول منه، كان أجدر بهما أن يقولا إنه دُفِن في بيت هذه المرأة. وهكذا تكلّم السيد بريدو[٥]. فهو يُعلمنا أن عائشة بنت أبي بكر[٦]، كانت من بين أحبّ النساء إلى محمد؛... ورغم أنها امرأة لَعوب[*١][٧]، دائماً مشغولة بحِيَاكَة بعض

(١) الاحزاب، ٥٢.

(2) Johannes Andreas, *Tract.*, c. 7.

(3) Prideaux, *Vie de Mahomet*, p. 153.

(٤) في الملاحظة (EE)، ص، ٢٠٧.

(5) Prideaux, *Vie de Mahomet*, p. 134.

(6) Là même, p. 139.

(7) (*1) *Disputatio Christiani*, c. 6. *Comment.*, *in Alcoran*, cap. 24.

الدسائس، ومع ذلك فإن محمداً لم يقدر أبداً على اتخاذ القرار بتطليقها. ألّف الفصل ٢٤ من القرآن لتبرئة زوجته، وفي نفس الوقت لكي يُعلل احتفاظه بها. حيث يقول لـمُسلِميه هناك، من طرف الله، أن كل الشائعات التي أذيعت ضدّ عائشة هي أكاذيب، وافتراءات بشعة؛ وقد مَنَعهم من الخوض في هذا الحديث مرة أخرى، مُهدّدا، في نفس الوقت بعذابات رهيبة في هذه الحياة وفي الأخرى، أولئك الذين يتجرّؤون على تشويه سمعة النسوة المُحصّنات. محمد كان قد تزوجها صغيرة(*٢)(١) اعتنى بتعليمها كل العلوم المعروفة في بلاد العرب، خصوصا فنّ البلاغة والخطابة، ومعرفة تراثهم القديم؛ وقد انتهزت فرصة عناية زوجها بها لكي تصبح مهذّبة وعالمة(*٣)(٢). كانت تكره عَلِيّا بوحشية، لأنه هو الذي كشف لمحمد عن انفلاتها الأخلاقي واضطراباتها.

إليك برهان آخر على المُحاباة التي كانت تُحظى بها من طرف زوجها: «سَوْدة [بنت زمعة] هي واحدة من زوجات(*٤)(٣) محمد التي يميل لها أقل، لا بل إنه قرر تطليقها، لكنها أثنته عن قراره هذا برجائها أن تبقى محافظة على لقب زوجة محمد، وواعدة إياه بأنها لن تطلب شيئاً آخر، وأنه حينما يأتي دورها للنوم معها، فهي تتنازل عنه لعائشة. حبّ محمد لعائشة جعله يوافق بكل سرور على هذا الطلب، وهكذا

---

(1) (*2) *Appendix ad Geograph. Nubiens.*, c. 8.

(2) (*3) *Disput. Christiani*, c. 6. Elmacin., lib. I, c. 4. Abul-Faraghius, Abul-Feda, etc.

(3) (*4) *Gentius, in notis ad Musladin. Sadum*, p. 568.

مَكثت في بَيتِه طوال حياتها، على الشروط التي فرضتها هي على نفسها»[1].

ربّما قد يُعتَقَد أنني أقول الكلام على عواهنه، حينما أأكّد على أن محمداً تحلّى بالصّبر على مغامرات زوجته الأحبّ إليه: لأن أحدهم قد يتخيّل أنه قد اعتقد أنها كانت بريئة، في أتم البراءة، وفي هذه الحال لا ينبغي الاعتقاد أنه كان زوجاً عطوفاً وغيوراً، ثم في نفس الوقت غير مُكتَرث بالخيانات الزوجية. أين سيكون إذن هذا الطّبع الاستثنائي الذي تحدّثت عنه؟ أجيب بأنه ليس هناك أي دليل ثابت على أنه شك في خيانة عائشة. لقد عَلِمَه من فم ابن عمّه عليّ، وهذا لم يمنعه من أن يواصل في الحفاظ إزاءه على نفس مشاعر الصداقة والثقة التي كانت من قبل؛ ودون شك لم يكن أبداً ليتصرُف بهذه الصيغة، لو اعتبره مُفترٍ في موضوع بهذا القدر من الإحراج. نعتقد إذن أنه كان مقتنعا بحقيقة هذا الخبر ونَعتبِر، علاوة على ذلك، أنه لو لم تكن المغامرات الغرامية لزوجته موثوق منها، لما حِيكَتْ حولها نوادر ونمائم أجبرت النبي الكذاب على الالتجاء إلى السّلطة السماوية لِوَقْف انتشارها. أتباعه، حَالما تَمّ اقناعهم بأنه يُكلّمهم من قِبَل الله، كَنّوا مشاعر الاحترام، ليس فقط لشخصه، ولكن أيضاً لزوجاته وأبنائه.

لم يكونوا إذن قادرين على صياغة هجاء فاحش ضد عائشة، لكنهم كانوا قادرين فعلاً على معرفة الاضطرابات العاطفية لسلوكها، والتذمّر منها، والاستياء باعتبارها فضيحة لا تُحتمل جالبة للعار لرجل الله.

---

(1) Prideaux, *Vie de Mahomet*, p. 143.

ويجدر الإشارة إلى أن الغيرة ليست دائماً منتظمة في أسبابها وفي مفعولاتها: فهي غالباً ما تبتعد عن قواعدها، أو عن مسارها العادي أكثر مما يُعتَقد. ثمّة أشخاص سيكونون غيورين لو كانوا أقل محبة: الدرجة القصوى من الرّقة تُولّد في قلوبهم ثقة لا يمكن أن تُولّده درجة أدنى. هناك أشخاص غيورون يكفّون عن المحبة حينما يعتقدون أنهم تعرّضوا للخيانة. هناك آخرون خيانة معروفة لا يمكن أن تشفيهم[١]. محمد يمكن أن يكون من هذه الفئة الأخيرة إزاء أحب زوجاته إليه. يجب التذكر جيداً أنه أحبها دائما، وهذا ما ينبغي أساساً أخذه في الحسبان؛ لأنه إذا حافظ عليها فقط لتفادي السّخرية، الشيء الذي كان بإمكانه أن يتعرّض إليها بالانفصال عنها، لا ينبغي أن يُستَشَفّ منه إلاّ صَبْر سياسي، أمر عادي جداً في الجنس البشري؛ عدد أولئك الذين يُفضّلون، على قَطِيعة متألّقة، تَواصُل حياة مُوحّدة مع شخص مكروه، ليس بقليل.

(PP)... أتباعه تقبلوا كإلهامات تأويلها لشريعتهم.] إن مصداقيّتها، بعد موت النبيّ الكذاب، أصبحت عالية للغاية لكي تَمنَع عليّا من أن يكون خليفة. كانت حاقدة عليه للأسباب التي رأيناها في الملاحظة السابقة. حقدها كان مَديدا؛ لأنه رغم أن عليّا[٢] كان له الحق في العرش الشاغر، بما أنه زَوج ابنة الكذاب، وقع اقصاؤه ثلاث مرات مُتتالية. العرش شغر للمرة الرابعة، وأخيرا ناله؛ لكن عائشة تمشقت

---

(١) الكل يتذكر الأغنية التي تبدأ بهذه الشكوى من محبّ: خيانة قاسية لا تفسخ أبداً ملامح خائنة، الخ.

(2) Prideaux, *Vie de Mahomet*, p. 140.

السلاح ضده، ورغم أنها لم تنجح بهذا السبيل، فقد نجحت بإثارتها وتحريضها على الثورة التي بمرور الزمن حطّمت علياً وعائلته[1]. عائشة عَمّرت ثمانية وأربعين سنة كاملة بعد محمد؛ لقد حازت شهرة كبيرة في طائفتها حيث يُسَمّونها النبيّة وأمّ المؤمنين. كانت الكاهنة الحيّة لقومها، يستشيرونها في كل النقاط الوعرة من الشريعة، لكي يتعلّموا المقصد الحقيقي للمُشرّع. مهما كانت إجاباتها، فهي تُتقبّل مِن طَرفهم كإلهامات[2]، وعُدّت رواياتها بينهم، منذ ذلك الوقت، روايات صحيحة. كل تراثهم الذي يشكل السُّنة، يأتي حسب رأيهم من عائشة، أو من واحد من صحابة محمد العشرة، هكذا يسمّون العشرة رجال الأوائل الذين انضمّوا إلى هذا المُغوي. لكن شهادة عائشة تجعل من الحديث موثوقا من صحّته. عبد الرحمان بن عوف يأخذ المكانة الثانية. لاحظوا أن محمداً لم يُودِع لها حفظ صندوق نبوّته[3]؛ لكن أودعه إلى حفصة ابنة عمر. هذا شيء غريب نوعاً ما، لأن ابنة عمر هذه لم تكن لها إلا المرتبة الثانية(*٢)[4] في قلب زوجها محمد. «في هذا الصندوق كانت هناك كل النسخ الأصلية لوَحْيِه المزعوم، والتي شكلت مادّة تأليف القرآن... بعد أن أنتهي من هذا الكتاب، أبو بكر(*٣)[5] سلّم

(١) لأنها ماتت في السنة ٥٨ من الهجرة. المكين، تاريخ العرب، الكتاب ١، فصل. ٧.

(2) (*1) Johannes Andreas, c. 3.

(3) Prideaux, *Vie de Mahomet*, p. 142.

(4) (*2) Johannes Andreas, c. 3.

(5) (*3) Abul-Feda. Hottingeri. *Biblioth. Orient.*, c. 2. Pocockii *Spec., Hist. Arab.*, p. 362.

النسخة الأصلية إلى حفصة، لكي تحفظه في نفس الصندوق. هذا يكشف خطأ جون اندريه(*٤)(١) الذي ادّعى أن عائشة هي التيَ حفظته. فعلاً، بما أن هذه المهمة هي جسيمة عند المحمديين، فما الشيء الذي يدل على أن هذه الوديعة حتى وإن أسلمت لعائشة من طرف الكذاب نفسه، عمد أبو بكر لسحبها منها، خصوصاً وأنها ابنته؟ لكن حفصة، بما أنها كانت أكبر سنا من عائشة، فضّلها عليها لهذا السبب، لكي تحافظ على هذه الوديعة الثمينة»(٢).

هناك بعض الأسباب التي تدعو للدهشة وهي أن المحمدية غير مفيدة للجنس المؤنث(٣)، نظراً إلى أنها تأسست من طرف رجل شهواني للغاية، وأن تكون شريعته وُضعت بين يدي امرأة، وأن امرأة أخرى يمكنها أن تعطيها التأويلات التي تريد. كنّا قد رأينا أن عائشة كانت تُعتَبَر كَنَبِيّة، وككاهنة: كانت حقاً بَابَا أنثى بين المسلمين. السيد هيربيلو (Herbelot)(٤) يذكر أنها حازت بينهم على سلطة كبرى، حتى في مادة اللاهوت والدين، وأنهم يلتجؤون إليها لفهم بعض أحاديث محمد، وأنها هي نفسها بادرت بإدانة الخليفة عثمان واتهمته بالكفر. كان من المفروض إذن، والحال هكذا، أن تَضع الأشياء في وضعيّة مواتية للجنس المؤنث. من أين جاء أنها لم تفعله؟ هل كانت من مِزاج تلك النّسوة اللواتي هنّ الأوائل والأكثر تحمّسا في لَعْن جنسهنّ؟ ألا يمكن

---

(1) (*4) Johannes Andreas, *de Confusione Sectae Mahometanae,* c. 2.

(2) Prideaux, *Vie de Mahomet,* p. 142.

(٣) انظروا إلى الملاحظة (Q).

(4) Herbelot, *Biblioth. Orient.*, au mot *Aischah,* p. 80.

اعتبارها كبرهان على ما يقال أحياناً، إن سلطة الرجال لا تكون أقوى إلا إذا تَربّعت امرأة على العرش؛ وأن سلطة النساء لا تكون أبداً أقوى، إلاّ إذا كان الصولجان بين يدي رجل؟ لا أدري. فليتمرّس رجال التّنظير كما يرغبون على هذه المسألة. لكن اعتبروا، أرجوكم، تأثيرات الجنس على تأسيس الإسلام، وكيف أنّ وِجْدانات المرأة زرعت على الفور بذور الفتنة. تابعوا خُطى انشقاق عَلِيّ، ستجدوا المنبع في انحراف عائشة الذي كان هو المُخبِر به. هذه المرأة لم تغفر له أبداً، ومَنعته ثلاث مرات على التوالي من استحقاق الخلافة، وبعد أن اعتلاها تكتّلت ضدّه[1]، وسارت على رأس ثلاثة آلاف رجل. خسرت المعركة، وألقِيَ عليها القبض، ثم أُرسِلت إلى المدينة أين ماتت، ودُفِنت مع محمد: لكن العصبة التي كوّنتها للثّأر من موت عثمان لم تَمُت معها، أخيراً قُتِل عليّ تحت هذه التعلّة، ومنها تولّد انقسام كبير دائم إلى الآن.

لا يمكنني أن أختم دون أن ألاحظ اختلالا في المكتبة الشرقية للسيد هيربيلو. لقد كتب في مقال عائشة أن أرملة محمد هذه، بادرت هي نفسها باتّهام الخليفة عثمان بالكفر، لكن في موضع آخر[2] يقول إنه حينما تمت استشارتها من طرف الفرقة التي اشتكت من الخليفة، أجابت بأنه يجب أن يتوب، وأنها من وقتها وهي تدعمه ضد عليّ. لا أعترضُ بأن هذا يبدو وكأنه تناقض، وإنما أقول إنها كَرِوَايَةٍ فهي منتقصة من كل الجوانب. يجب الاعتقاد، ١. أن هذه المرأة حكمت في قضية عثمان، وأنها أدانته بالكفر؛ ٢. أنها صرّحت بأنه ينبغي الاكتفاء بتوبته. كان ينبغي

---

(1) Herbelot, *là même*, et au mot *Ali*, p. 89, et 90.

(٢) في مقال «عثمان»، ص، ٦٩٦.

على السيد هيربيلو تجميع هاتين الحادثتين في مقال عائشة، وفي مقال عثمان، وليس بَعْثَرَتهما هنا وهناك، بوضع الأولى دون الثانية في مكان، والثانية دون الأولى في مكان آخر. هذا التنبيه مهمّ لجميع مؤلفي القواميس، ومن الصعب جداً أن لا يسقط المرء في هذا الخطأ. أخشى أني سقطت فيه أكثر من مرة.

(QQ) **حكاية سخيفة جداً تُروى عن سذاجة المحمّديين في إيمانهم بالمعجزات.]** هناك راهب بينيدكتي من هولندا نشر كتابا[١] باللاتينية وبالهولندية، في ديفنتر، عام ١٥٢٤، حيث يروي فيه العديد من الحماقات، ومن بينها الآتية: كان هناك رجل من مدينة جِنْوة عنده فضول كبير لرؤية ماذا يمارس المسلمون في مساجدهم، فدَخَله خِلسة، رغم أنه يعلم جيداً عادتهم في قتل كل المسيحيين الذين يدخلونه، أو بإجبارهم على الكُفر بالمسيحية. وقد وجد نفسه مُحاطاً بجُموع غفيرة بحيث لم يتمكّن من الخروج، حينما حصل له طارئ يحتّم عليه مغادرة ذاك المكان، لأن ضرورة طبيعية تضغط عليه بشدّة. لم يستطيع التحكّم فيها، فوجد نفسه إثرها في خطر الموت، نظراً إلى أن الرائحة الكريهة التي فاحت منه كشفت لهم فحوى مغامرته. خرج من هذه الورطة، بالقول: بما أنه كان مصابا بالقَبض منذ مدة طويلة، جاء لطلب الشّفاء من محمد، وللتوّ شعر بالارتياح. وما إن سمعوا بذلك حتى افتكّوا طُبّانه؛ علقوه في المسجد؛ وصاحوا: معجزة! معجزة!

إليك عبارات هذا الراهب: «بما أنه كان وسط جموع غفيرة، ولم

(1) Intitulé, *Prognosticon Anti-Christi.*

يستطع الخروج، حدثت له حاجة طبيعية وكان من الضروري أن يتخلّص من وزن الجسم الذي في أحشائه، فتغوّط في سرباله. وبما أن رائحة كريهة انتشرت في ذلك المسجد، الكل تفطّن إلى مَأتَى تلك الرائحة الكريهة. عرفوا أنه من جِنْوَة، فهَمُّوا بقتله، لكنه قال لهم، ربما عارفا بلغتهم، أو عن طريق مترجم كاذب ما معناه: بما أنه منذ مدة طويلة لم يسرّح بطنه، دخل المعبد لكي يتوسّل الشفاء من محمد وعلى الفور حصل له صرف في بطنه. وما إن سمع هؤلاء الوحوش كلامه حتى صدّقوه، وعلى الفور أخذوا سرباله ملوثاً بالغائط، وعلّقوه على باب المسجد، صائحين: مُعجزة! معجزة!»[1].

هكذا يَسْخَر نصف العالم من النصف الآخر؛ فالمُحمّديون دون شك لا يَجهلون كل ما يُقال من سخافة على حساب الرهبان؛ وحتى إن كان صحيحاً أنهم لا يعرفون شيئاً، من الجائز جداً إمكانية الاعتقاد بأنهم يُلفّقون هم أنفسهم أكاذيب وخرافات مُشينة ضد الطوائف المسيحية. لو عَلِموا بحكاية الراهب البنديكتي الهولندي، لقالوا: انظر إلى صنّاع المعجزات الظّرفاء هؤلاء كيف يَصنعون لنا من المعجزات أتْفَهها؛ لا لأنهم غير قادرين على ابتكار معجزات شيّقة بل لأنهم يحتفظون بها لأنفسهم: يشربون الخمر المُعتّق، ويرسلون لنا الثّمالة.

(1) *Prognosticon Anti-Christi*, p. 38, apud Revium, in *Historiâ Daventriensi*, p. 228, 229.

الفهرس

Piere Bayle

MAHOMET

Extrait du Dictionnaire Historique et Critique



Par Mohamed Mzoughi

